كتاب الهلال

رحلاتي حول العالم

الدكتورة نوال السعداوى

سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن ((دار الهلال))

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤٢٣ ـ جمادى الثانى ١٤٠٦ ـ مارس ١٩٨٦

NO 423 - MARCH - 1986

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

رحلاتى

حول العالم

بقلم

الدكتورة نوال السعداوى

دار الهلال

الجزء الثانى

مقدمة

فى هذا الجزء الثانى من رحلاتها تواصل الدكتورة نوال السعداوى جولاتها فى بلاد العالم . وقد حملتنا معها فى الجزء الاول الى أماكن مختلفة فى أوروبا وآسيا وعشنا معها رحلتها الاولى الى الجزائر بعد الثورة ، وايران قبل الثورة ، وحياتها مع الفدائيين الفلسطينيين فى الاغوار على حافة نهر الاردن . وسافرنا معهـا الى النصف الاخر من الارض فى أمريكا ، وأول رحلة لهـا الى روسيا ومؤتمرات النساء فى شمال أوروبا ،ومتاحف باريس ولندن .

وتواصل الدكتورة نوال السعداوى بأسلوبها الخاص وقلمها المميز رحلتها الطويلة داخل الهند ، ذلك العالم الشاسع ، ثم تأخذنا معها الى عوالم أخرى فى قارة افريقيا ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . نشهد منابع النيل وبحيرة فيكتوريا ، وندخل الى الحبشة بعد الثورة، ونتابع معها الرحلات حتى جزيرة العبيد على الساحل الغربى .

ندخل معها الى المكان والانسان فى آن واحد ، ونربط بين التاريخ والسياسة والاداب دون فاصل . تلتقى بالانسان العادى البسيط بمثل ماتلتقى بأنديرا غاندى وكبار الحكام .

انه رحلة ممتعة داخل النفس الانسانية بمثل ما هو رحلة الى العالم البشرى الواسع .

رحلة الهند

في الهند لم أشعر انني غريبة في بلد غريب . امشي في الشوارع وانظر الى الوجوه والسماء والارض والمباني والآثار فانسى انني في الهند واظن انني في مصر . بل انني رايت مصر في الهند اكثر مما كنت أراها وانا في مصر . عرفت عظمة تاريخ مصر الذي لم أعرفه جيدا في مصر . اقترابنا من الشيء يجعلنا دائما عاجزين عن رؤيته جيدا ، ولابد من مسافة بيننا وبين الاشياء لنراها ونعرفها .

رايت في الهند جذوري ، طفولتي ، ماضي وحاضري ولاول مرة تتلاشى غربتي مع نفسي ، ويحدث نوع من الاتصال بين الحلقات المتقطعة في نفسي ووطني .

أعظم مافي الهند أنها توحي للانسان بأفكار وأحاسيس جديدة ، انها تقوي الجزء العقلي والنفسي في الانسان . تجعله اكثر اقترابا من نفسه الحقيقية . لهذا شعرت في الهند بسعادة غريبة . كالذي يكتشف نفسه من جديد ، ويعثر على خصوبة جديدة في عقله وأحاسيسه ويكتسب تلك القوة النفسية المجهولة والمعلومة التي تجعله قادرا على الخلق والابتكار .

هذه هي ميزة الهند التي لم أجدها في بلد أخرى ،

وكم من بلاد زرتها فشعرت بالغربة مع نفسي والناس ، بل كم شعرت بالغربة عن نفسي والناس في وطني احيانا .

اعطتني الشهور التي عشتها في الهند وقتا كافيا لاقرأ شيئا من الادب الهندي . كان في خطتي ان التقي بعدد من الادباء والاديبات ذوي الانتاج الجيد . ولم تكن هناك من وسيلة لاختار هؤلاء سوى أن اقرأ بعض الروايات والقصص ، فاذا ما اعجبني شيء اكتب اسم المؤلف او المؤلفة . كنت في رحلاتي السابقة اسال أهل البلد عن أدبائهم واديباتهم . ويذكروا لي بعض الاسماء المشهورة . وعلمتني التجارب أن هؤلاء لم يكونوا دائما افضل الادباء أو — الاديبات . كأنما الشهرة تتناسب تناسبا عكسيا مع جودة الانتاج الادبي .

لم أكن متحمسة للقاء الادباء الرجال . ليس ذلك لكونهم رجال . ولكن لانني وجدت بين انتاج النساء ما استوقفني . وبمثل ما استوقفني كفاح المرأة الهندية في السياسة ونشاطها في الاحزاب استوقفني أدب المرأة الهندية . وبمثل ما أعجبت بشجاعة انديرا غاندي وقوتها في حسم الامور اعجبت بشجاعة المرأة الهندية التي تمسك القلم وتكتب .

والمرأة التي تكتب في الهند تتناول جميع القضايا في بلدها وفي الحياة تحليلا ونقدا بغير خوف ولا حرج لا شيء امامها اسمه موضوع حساس ، لا في السياسة ولا في الدولة ولا في الحب ولا في الجنس ولا في العمل . كل شيء في الهند وفي العالم أمام قلمها قابل للعرض والكشف .

احدى الكاتبات واسمها « ساهجال » كتبت تنقد الحكومة . وتنقد سياسة انديرا غاندي وبصرف النظر

عن سلامة رأيها أو عدم سلامته فانها استطاعت أن تعبر عن نفسها ، ولم تستطع الحكومة أن تمنعها . بل والاهم من ذلك ان شيئا لم يحدث لها وظلت صداقتها بانديرا غاندي كما هي . وساهجال تكتب في السياسة . وتكتب ايضا روايات وقصص . وفي روايتها الاخيرة بعنـوان « هذا الظل » تكشف حياة المراة المطلقة في الهند وتنقد كثيرا من التقاليد التي تحيط بالمرأة الهندية .

شربت الشاي الهندي في بيت ساهجال في دلهي ، وحدثتني عن حياتها ، وعن علاقتها بالزعيم نهـــــرو وعرفت انها ابنة شقيقة نهرو وانها تاثرت الى حد كبير بشخصية نهرو لانها نشأت في أسرته .

احدى الكاتبات في الهند اسمها « كاملا داس » تمسك القلم كأنه مشرط في يد جراح ، تشق اللحم وتكشف النخاع . تكتب عن حياتها بالشجاعة نفســها التي تكتب بها عن حياة الاخرين آخـر كتاباتهــا هي مذكرات حياتها . تقول عن نفسها أنها لا تملك الا الصدق وهذا الصدق دفعها الى أن تترك بيتها وزوجها والمدينة الكبيرة بومباي وتذهب لتعيش في قريتها مع أهلهـــا الاصليين « الناير » حيث الثقافة الهندية الاصــيلة وحيث تحترم المرأة ولها السيادة داخل البيت وخارجه كالالهات القديمات . أمها كانت تكتب الشــعر وهي راقدة على بطنها في سرير من أربعة عمدان . أما هي فكانت تنام ناحية قدمي زوجها . تركت بيتها وأولادها لزوجها وذهبت الى البحر والصيادين . كان لها أصدقاء يشاركونها رؤية الجاموس والطبيعة ، أما زوجهـا فلم يكن لديه وقت لرؤية الطبيعة . كان غارقا في دوسيهات مكتبه ، ولم يكن يتكلم معها . كان يكفيه أن يكون لزوجته

جسم جميل ورائحة طيبة فى السرير . احيانا كانت تخلع «الساری» وتنزل فى البحر ويضحك أصدقاؤها. كان النهر بغير ضفاف كأنهر الهند التى تفيض وتغرق القرى . عرفت الحب وظنت ان الحب الى الابد والشباب الى الابد ولكنها عرفت بعد سنوات طويلة ان الوحدة هى الى الابد فقط .

النساء يملأن الفراغ داخلهم بالحب والاطفال . حين يملهن الحب وحين يكبر اطفالهن ويذهبون الى اذرع اخرى يتجهن الى الله . واتجهت كاملا داس الى آلهة الهند . اتجهت الى شيفا وكريشنا وجانيش وديرجا . لكن لم يستطع اى اله منهم أن ينفعها بشىء . كانت تكبر فى السن وتزداد وحدتها . أصبح من الصعب بل من المستحيل أن يحبها أحد أو تحب هى احدا .

حاولت أن تحتفظ بصدقها وشجاعتها لتشق طريقها نحو الموت دون أن تندم على حياتها الماضية . حين كانت تقارن زوجها بالازواج الآخرين تشعر بعدم الرضا لكن زواجها نجح لسبب واحد هو ان زوجها كف أن ينظر اليه كزواج . وملكت هى حريتها . الفرق بين الاله والانسان هى الحرية . الاله حر والانسان عبد . كاملا داس فخوره باصلها من « الناير » الذى كان مجتمعا متعدد الازواج فى « كيرالا » حتى الربع الثانى من هذا القرن . مراسيم الزواج لم تكن تستغرق الا دقيقة واحدة ثم يدخل الزوج الى حجرة نوم زوجته لم يكن ينفق عليها ، ولا يعيش معها فى بيتها ، ولكنه يأتى اليها ليلا فى ضوء القمر وينادى عليها قائلا « هو .. هو .. » حينما تسمح له زوجته بالدخول الى حجرتها يدخل ، والا فعليه أن ينتظر أو ينصرف اذا

كان معها زوجها الآخر . كانت المرأة هى صاحبة النسب وتشعر بكرامتها .

تعرضت كاملا داس لبعض الهجوم لكنها تقول ان معظم قرائها من الرجال والنساء سعداء بامرأة شجاعة تكتب أفكارها بصدق . طلبت منها احدى الهيئات ان تقوم ببحث عن القيم الاخلاقية بين الازواج فى مدينة بومباى . وقامت كاملا داس بالبحث ونشرت نتائجه على الناس .

ولم تكن النتائج وحدها هى التى صدمت الناس فى مدينة بومباى ولكن تحليل كاملاداس لها . كتبت هذه الاديبة والباحثة الهندية تقول انها وجدت أن ٩٦٪ من الازواج يخونون زوجاتهم سرا خلال ساعات العمل ، وفى حجر الفنادق وفى رحلاتهم الى بلاد اخرى ، وفى الشهور الاخيرة من حمل زوجاتهم أو أثناء الدورة الشهرية . وحينما سألت بعض هؤلاء الازواج وجدت انهم يحبون زوجاتهم ولا يفكرون فى تركهن ولكن هناك نوع من البرود نشأ بسبب طول السنين ، ورائحة العرق فى الملابس ، وتآكل الفكر . أما فى حالة النساء فقد وجدت الكاتبة أن من كل مائة زوجة فان ٧٣ زوجة مارست الجنس مع رجال آخرين غير زوجها وبحثت كاملاداس عن أسباب اخلاص الزوجات الباقيات وهن ٢٧٪ فوجدت انهن مخلصات ليس بسبب ايمانهن بالاخلاص الزوجى ولكن لانهن قبيحات . ان القبح هو الذى انقذ زواجهن اكثر من اى عامل آخر . وتقارن الكاتبة بين النوعين من الزوجات فتقول : يمكن التعرف على الزوجات غير المخلصات بسهولة بسبب رشاقتهن وحلاوة الابتسامة ، والثقة فى حركة العينين ، وتحريك

الذراعين والساقين بخفة وسهولة . اما هؤلاء الزوجات المخلصات فلا رشاقة فى حركاتهن ، وشفاهن مدلاة فى غباء وأسى ، عصبيات ، تؤنب الواحدة منهن زوجها أمام الناس لاى سبب تافه ، على عكس الزوجات الخائنات اللائى يفضن جاذبية ورقة وحبا لازواجهن .
وقد دهشت الكاتبة من ملاحظاتها وتساءلت فى نهاية البحث عن ماهية الزواج . ولم يستطع أحد أن يهاجم كاملاداس بعد هذا البحث لانهم أدركوا أنها كشفت النقاب عن حقيقة حياتهم التى يخفونها عن الآخرين بل من انفسهم ايضا .

ثالوث المحرمات فى معظم المجتمعات فى العالم هو الجنس والدين والحكومة . وقد استطاعت الكاتبة الهندية أن تمسك قلمها وتكتب فى اى من هذه الموضوعات بغير رهبة ولا حرج . ان الروائية والشاعرة « امريتا بريتام » احدى هؤلاء اللائى نقدت بشعرها ونثرها كل ماهو مزيف فى السياسة أو الحكم أو الدين او الجنس .
اكلت فى بيت « أمريتا بريتام » عسلا بالجبن والشطة وأهدتنى روايتها الاربعين بعنوان « ذلك الرجل » وقضيت ليلة كاملة اقرأ الرواية الصغيرة التى تكشف كثيرا من الزيف فى موضوع الدين . تدور الرواية حول مأساة شاب أصبح يكره أمه ويحتقرها لانه علم أنه ليس ابن ابيه ، وانما هو ابن ذلك الكاهن الذى يشرف على المعبد الهندى . كانت أمه عاقرا لا تلد فذهبت الى المعبد ووعدت الاله شيئا بانه لو رزقها بولد فسوف تهبه لخدمة الاله . وحملت الام بعد زيارتها للمعبد وانجبت ابنها الذى تركته وهو طفل ليخدم الاله فى المعبد . وشب هذا الطفل خادما فى المعبد تحت

اشراف الكاهن الذى عرف منه انه هو ابوه الحقيقى ، اذ تقمص دور الاله شيفا وقاد أمه من يدها الى حجرة مظلمة في المعبد حيث مارس معها الجنس . وصدمت هذه الحقيقة الشاب المخلص للمعبد والآلهة واصبح معذبا تؤرقه هذه الكذبة التي عاشتها امه مع ابيه وخدعته مع ذلك الكاهن . فى نهاية القصة ترقد الام على فراش الموت تطلب رؤية ابنها قبل أن تموت لكن الابن يرفض مغادرة المعبد ليزور أمه الزيارة الاخيرة فياتى اليه زوجها أو « أبوه » غير الحقيقى ويدور بينهما الحوار التالى :

الاب — لماذا تكره أمك هذه الكراهية ؟

الابن — لانها خدعتك . انا لست ابنك . أنا ابن ذلك الكاهن .

الاب — انها لم تخدعني . لقد ذهبت الى الكاهن وانا كنت أعرف ذلك . لكنك مخطىء حين تقول انك لست ابنى . أنا أبوك وانت ابنى رغم كل شيء . اتحاد الاجساد لا يهم يابنى ولكن المهم اتحاد العقول . حين اعطى الكاهن جسده لامك كان عقله متحدا بالإله شيفا . جسدى لن يصحبنى بعد موتى ولكن عقلى سيصحبنى . أنا الاله شيفا نفسه ، والكاهن لم يكن الا اداة لارادتى . جسد الكاهن كان تحت ارادتى . انت نتاج ارادتى وليس جسدى . ولكن الانسان ارادة وعقل وليس جسدا . لهذا انت ابنى وانا ابوك .

وتساءل الابن فى دهشة — اى أن أمى لم تخدعك ؟

وقال الاب — لا . انها امرأة مثالية . انا الذى خدعتها فى أول زواجنا . تركتها وهى عروس وسافرت للتجارة فى بلد بعيد وهناك عرفت بعض النساء واصبت

بمرض السيلان وفقدت قدرتى الجنسية . لم يكن من الممكن بعد ذلك أن انجب أطفالا . لكنى أردت أن يكون لى ابن من خلال جسد الكاهن ، وقد كان !

وقد نجحت رواية امريتا بريتام ليس بسبب احداث القصة ولكن بسبب طريقتها العميقة الساخرة فى عرض ونقد العقائد الدينية المنتشرة فى بلدها . والمجتمع الهندى كأى مجتمع فى العالم شديد الغضب حينما يمس أحد قدسية الآلهة . وقد هاجم بعض القائمين على الدين هذه الكاتبة واتهموها بالالحاد والاساءة الى صاحب الجلالة الاله شيفا .

وقالت لى أمريتا بريتام وهى تضحك بسخرية ـ معظم هؤلاء من امثال ذلك الكاهن الذين يدعون صلتهم بالآلهة ليعالجوا النساء العاقرات . وكم تشتهر بعض المعابد فى الهند بقدرتها على شفاء الزوجات اللائى لا يلدن . وبالطبع يكون داخل المعبد أحد الكهنة من ذوى الكفاءة الجنسية العالية .

ذكرتنى رواية أمريتا بريتام بقصة سمعتها وأنا طفلة من احدى قريباتى فى قريتنا . قالت لى أنها ظلت عشر سنوات لا تنجب واخيرا نصحتها بعض النسوة بأن تذهب الى « شيخ » فى القرية اشتهر بعلاج عقم النساء بواسطة حجاب من الاحجبة . وتذكرت انها قالت لى أنها ذهبت الى ذلك الشيخ الذى ادخلها الى حجرة مظلمة وجعلها تخلع ملابسها ليعلق لها الحجاب فى رقبتها . ودهشت حين سمعت ذلك وقلت لها بسذاجة طفلة فى العاشرة ـ ولكن الم يكن من الممكن أن يعلق لك الحجاب فى رقبتك دون أن تخلعى ملابسك ودون حاجة الى الحجرة المظلمة . وقالت قريبتى الريفية

وهى تتلعثم ـ لا ! ليس ممكنا ، لقد قال لى أن الارواح الشريرة التي تسبب لى العقم لا تغادر جسدى الا فى الظلام وبعد ان يصبح جسدى نظيفا عاريا كما ولدتنى امى .

لم اتذكر هذه القصة التي وقعت فى قريتى كفر طحلة منذ اكثر من ثلاثين عاما الا هذا اليوم وانا فى سريرى فى مدينة دلهى بالهند بعد أن قرأت رواية امريتا بريتام . وهذا هو الادب الجيد . انه الادب الذى يجعلنا نتذكر حوادث مضت عليها السنون والسنون . فنتذكرها لاول مرة ونفهمها ايضا لاول مرة . وهذا هو الفن الذى يضىء أركانا مظلمة فى عقولنا .

شوارع المدن الكبيرة في الهند كدلهى وبومباى وكالكاتا تشبه بعضها البعض . فى كل شارع تقريبا ترى أعدادا هائلة من راكبى الدراجات او الموتوسيكل او نصف الموتوسيكل ونصف الدراجة ونصف السيارة . الرجال والنساء هنا يركبون هذه الدراجات والموتوسيكلات . واحيانا تركب الاسرة كلها الاب والام والاطفال فوق دراجة واحدة أو موتوسيكل واحد ـ طريقة مفيدة عملية للتغلب على مشكلة المواصلات . والمراة كالرجل تركب الدراجة او الموتوسيكل رغم السارى الطويل الذى يطيره الهواء أو يشبك طرف من اطرافه فى جنزير الدراجة . تناقض غريب لازال يحيط بالمراة الهندية العاملة لقد كسرت الحواجز واقدمت على كل شىء سوى أن تخلع « السارى » الذى اجمعت نساء الهند على انه زى غير عملى يعرقل خطواتها وتتعثر فيه وهى تركب الاتوبيس او الدراجة بل وهى تسير فوق الارض . بعض النساء يقولون أن « السارى » فيه أنوثة ، وترد عليهن

اخريات بأن تذهب الانوثة الى الجحيم وترتدى النساء زيا عمليا كالسروال مثلا يساعدهن على الحركة السهلة السريعة . بعض النساء يقولون أن السارى يميز المرأة الهندية عن غيرها من النساء فى العالم ، وترد عليهن اخريات بأن ما يجب أن يميز المرأة الهندية من غيرها هو طريقة تفكيرها وليس طريقة لبسها . ويحتدم النقاش ويتدخل بعض الرجال الهنود فيقولون أنهم يفضلون « السارى » لكن بعض النساء يثرن ويقلن أن المرأة يجب أن ترتدى الملابس التى تريحها وتسهل الحركة لها والعمل وليست الملابس التى يفضلها الرجال .

لكن المرأة فى الهند بصفة عامة لا تزال حريصة على ارضاء الرجل . معظم الاسر فى الهند ابوية ، الرجل هو الذى يسيطر والاطفال الذكور يحظون برعاية أكثر وطعام افضل وتعليم اكثر من الاطفال البنات .

والمرأة فى الهند هى التى تدفع المهر لزوجها ، ويزيد مهر العريس بارتفاع طبقته وبارتفاع منصبه وتعليمه . وهذا بقايا النظام الاموى الذى كان سائدا فى الهند ، وكانت المرأة لها السيادة داخل البيت وخارجه . كانت هى التى تعمل وهى التى تملك وهى التى ترث وهى رئيسة الاسرة ينسب اليها أطفالها . وبعد أن ثار الرجل على المرأة وانتشرت الابوية وفقدت المرأة سيادتها لم يتغير نظام دفع المهر كثيرا وظلت المرأة هى التى تدفع المهر لزوجها .

قالت لى طبيبة هندية أسمها روماتالا « أى رحمة الله بالعربية » : كان الناس يفرحون بالبنت حين كان للمرأة السيادة والنسب أما الآن فيفرح الاباء والامهات بالاطفال الذكور ولا يفرحون بالاطفال البنات . الابن

كبيضة الذهب اما البنت فهي التي تدفع المهر وتدفع عمرها من اجل الزوج والاطفال دون أن تأخذ شيئا .
لكن هناك جيل جديد من البنات الهنديات اللائي يثرن على هذا النظام ويرفضن دفع المهر للعريس ، بل يرفضن الزواج كلية مادامت عقلية الرجل الهندى اصبحت تنظر الى الزوجة كمخلوق اقل من الرجل .
الغريب أن كثيرا من الرجال الهنود يعتنقون مثل هذه الافكار المتخلفة عن المرأة وكأنما قد نسوا تاريخهم وقد قال أحدهم وهو طبيب متعلم : لقد خلقت المـــرأة للخدمة بالبيت . ان امكانياتها الذهنية والفكرية لا تؤهلها الا لهذا العمل .
وردت عليه احدى النسـاء قائلة : ولكن انديرا غاندى امرأة وقد ساعدتها امكانياتها الذهنية والفــكرية أن تحكمك أنت والرجال والنساء فى الهند . فهل هى امرأة أم رجل ؟ .. وسكت لحظة كأنما نسى أن امرأة هى التي تحكم الهند ثم قال : نعم هى امرأة ، ولكن المرأة امرأة وسألت : ماذا تعنى أن المرأة امرأة ؟ وحاول ان يتحدث مستخدما تلك الكلمات كالانوثة والرجولة .. الخ وأدركت أن الرجال حتى وان حكمتهم امــــرأة يظل تفكيرهم ونظرتهم الى المرأة ــ وبالذات الزوجة كما هو وهذا يدل على أن الزواج او الاسرة الابوية هى البـؤرة الاساسية التى يتربى فيها الرجال بهذه الافـــكار ، وباستمرار نظام الزواج الابوى فسوف تظـل هـذه الافكار فى عقول الرجال « والنساء أيضا » سواء حكمهم رجلا أو امرأة .

***

المرأة العاملة باجر فى الهند تمثل ١٩٪ من قـــوة

العمل « ضعف الرقم فى مصر » وهى تعمل فى كل مكان . تعمل فى الحقل وتعمل فى المصنع وتعمل فى المكتب ، وفوق كل ذلك تعمل فى البيت تطبخ وتكنس وتخدم الصغار والكبار ، فيما عدا القلة من نساء الطبقة المستريحة القادرات على استئجار الخدم والمربيات والطباخين .

النساء العاملات يمثلن ٤٥٪ من جملة عدد النساء في الهند . من هؤلاء ٧٧٪ يعملن بالزراعة فقط . والمرأة التى تعمل بالزراعة هى تلك المرأة الكادحة التى تشقى طول النهار فى الحقل ثم تعود الى بيتها تطبخ وتغسل وتنظف . وهكذا فان معظم نساء الهند كمعظم النساء فى العالم يدفعن كل شيء ولا يحصلن فى النهاية الا على ما يسد الرمق ومعاملة سيئة من الزوج المسيطر . وفى بعض مناطق بالهند لا تجلس الزوجة فى حضور زوجها وانما تظل واقفة طول الوقت هى وبناتها أما الزوج والاولاد الذكور فيجلسون . وفى بعض المناطق يحرم على البنات والنساء دخول المعابد التى لا يدخلها الا الذكور . وتنتشر الكثير من الخزعبلات عن الانوثة والرجولة والشرف .

ولا زال مفهوم الشرف فى كثير من مناطق الهند قاصرا على الحفاظ على الاعضاء الجنسية وبالذات عند البنات والنساء . ولكن هناك مناطق تفرض العذرية على الذكور أيضا ويحرم على الشاب أن يمارس الجنس قبل الزواج . وفى بعض المناطق يتزوج الرجل أمرأة واحدة اما المرأة فلها عدد من الازواج .

وقد وجدت ان اختلاف انظمة الزواج ابوية كانت او أموية ، تعدد زوجات أو تعدد أزواج ، كل ذلك

يرتبط بالنظام الاجتماعي والاقتصادي لهذه المنطقة اكثر مما يرتبط بالنظام الديني أو الاخلاقي . في بعض مناطق الجنوب وجدت أسرا أموية ومسلمة في الوقت نفسه ، ووجدت أن المسلمين والمسلمات في بعض المناطق الهندية يحرمون على الرجال تعدد الزوجات لانه يضر بالمنطقة اقتصاديا ... وهكذا .

***

قرأت اليوم في الجريدة الصباحية الهندية أن آلاف المسلمين الهنود في « مدراس » جنوب الهند صلوا مع الهنود الآخرين لاله المطر ، ليشفق على الناس ويمنع عنهم ذلك الجفاف الشديد الذي حدث في المنطقة . وقالت الجريدة أن الامطار انهمرت من السماء بعد ٧٢ ساعة من الصلاة . واعتقد كثير من الناس أن اله المطر هو الذي انزل المطر على حين ذكر علماء الارصاد الجوية أن الامطار هطلت بسبب تكاثف السحب في المنطقة وهبوط في درجة الحرارة بسبب رياح من المحيط .

تذكرني بعض العادات في الهند بالعصور الوسطى ، حين كان الناس يفسرون الامطار والعواصف والكوارث تفسيرا دينيا . ولازال بعض الناس في الهند « وفي أماكن كثيرة من العالم » يؤمنون بالخرافات والخزعبلات .

المرأة الارمل في الهند تعامل أحيانا كالساحرة الشريرة في العصور الوسطى . كانت الزوجة الهندية الى عهد غير بعيد تحرق نفسها بعد موت زوجها ، أو كانت أسرتها تقيدها بالحبال وتلقيها في النار مع جثة زوجها « عادة الهنود حتى الآن هو حرق الموتى » وقد انقرضت هذه العادة تقريبا في معظم مناطق الهند ، لكن المرأة الارمل ظلت مكروهة . بعضهم يتصور أنها سبب موت

زوجها وبعضهم يتصور أنها سبب الكوارث التى تحدث احيانا . بعض الاحزاب السياسية ومن ذوى الميول الراسمالية والاقطاعية تستغل هذه العادة القديمة لتهاجم انديرا غاندى « وهى امراة ارمل » . انهم يروجون بين عامة الناس أن الكوارث التى تحدث فى الهند من حين الى حين مثل الفيضانات أو موت الالاف من الجوع أو الامراض ، كل ذلك لان التى تحكم الهند امراة ارمل . ويحاول هؤلاء بطبيعة الحال أن يضللوا الناس عن فهم الاسباب الحقيقية للمشاكل وأهمها الاستغلال الاقتصادى للشعب الهندى والاستعمار القديم والجديد الذى تحاول انديرا غاندى أن تحاربه .

أشفق على هؤلاء الملايين من الهنود الذين يركعون فى معابدهم كل صباح أمام تمثال الاله شيفا ليمنع عنهم المرض أو الجفاف أو الجوع غير مدركين أن الاله شيفا وغيره من الآلهة لا يمنعون الجوع ، وانما الذى يمنع الجوع هو عدالة توزيع ثروات الهند على أهلها وناسها بدلا من أن تنهبها أقلية فى الداخل ومستعمرون فى الخارج .

***

براهما ، فيشنو ، شيفا هم الآلهة الثلاثة الرئيسية فى الهند للقوة والخلق والدمار . وهم يقولون أن الاله القادر على الخلق هو الاله القادر على الدمار ، ولهذا يرمز شيفا الى الخلق والقتل معا . تماثيل الاله شيفا متعددة الاشكال . أهمها ذلك التمثال الذى يرقص وله اربعة اذرع تقطر الدم من احداها وتحت قدميه طفل مقتول . والقصة تقول أن الآلهة برافاتى زوجة شيفا ولدت ولدا ، لكن شيفا ظن ان برافاتى زوجة خائنة وأن

هذا الولد ليس أبنه . ومسك شيفا السيف وفصل راس الطفل عن جسده .

وغضبت الآلهة برافاتي ووضعت راس فيل لابنها وعاش وأصبح الاله « جانيش » له راس فيل وجسد انسان يرمز الى الحب والخير والحظ السعيد ويركع امامه الهنود ليتباركون به ويشعرون نحوه بالحب والعطف . أما الاله شيفا فهم يرهبونه ويخافون سره وغدره ، ولهذا يغدقون عليه الأموال والطعام درءا لشره لا يعرف هؤلاء أن هذه الاموال والطعام لا يذهب الى شيفا وانما الى طبقة من الكهنة والنساك جعلوا المعابد مؤسسات تدر عليهم الخير .

ظاهرة غريبة لاحظتها في معظم المعابد ودور العبادة ذلك ان معظم زوارها الذين يدفعون الهبات هم من الفقراء . رأيت رجالا ونساء يهبون طعام يومهم للمعبد ويصومون اليوم كله بغير طعام . لماذا ؟ لانهم يطلبون من الاله مطلبا مثل أن يرزقهم بولد أو يشفى مريضهم او يحميهم من اضطهاد صاحب الارض .. الخ وتتعدد الاسباب ويتكوم في المعبد الرزق الضئيل لآلاف الهنود الكادحين الاميين .

نسبة الامية في الهند ٦٠٪ بين الرجال ، ٨٠٪ بين النساء تمر السنون وتظل مشكلة الامية بغير علاج ، كما هو الحال في بلاد كثيرة . ولكن كيف تعيش الاقلية المرفهة في المدن اذا فتح الفلاحون والكادحون عيونهم واذهانهم ؟ من أجل هذا تحافظ هذه الاقلية « التى لا تذهب الى المعابد أبدا » على المعابد والالهة والاديان كمؤسسات للتجهيل والتعمية بل والقمع والتخويف أيضا .

قرأت اليوم فى جريدة الصباح شيئا طريفا . ان حاكم ولاية ماهرا شترا « عاصمتها بومباى » وأسمه على يافاريونج اعترف بالامس فى خطابه وهو يفتتح احد المعارض الكبيرة انه حينما كان سفيرا فى فرنسا رغب فى سرقة احدى التحف الجميلة من متحف فى باريس . لكنه قاوم هذه الرغبة ولم يسرق التحفة الجميلة . واستطرد هذا الحاكم الهندى يقول : لابد أن اعترف أن هذا الاغراء بالسرقة كان أشد اغراء تعرضت له فى حياتى بالرغم من أننى اميل أحيانا الى سرقة بعض الاشياء التى تعجبنى .

مثل هذا الكلام الصريح يتفق مع طبيعة الهنود البسيطة المباشرة . انهم يعبرون عن انفسهم احيانا بصدق شديد يدهش الغرباء عنهم ، بعض الناس يظنون ان ذلك الصدق نوعا من البلاهة أو الغباء أو السذاجة . فى مصر حينما يريدون التهكم بشخص ساذج صريح يقولون عنه انه هندى . لكن احترمت صدق الهنود وصراحتهم . لقد احترمت حاكم ماهراشترا الذى اعترف بأنه يسرق او يميل الى السرقة أحيانا . كثير من الحكام يسرقون دون أن يعترفوا بذلك .

والهنود أيضا بصفة عامة لا يجيدون المجاملة . فالمجاملة نوع من الكذب الاجتماعى الذى انتشر فى العالم وأصبح نوعا من الرقى والتهذيب . كما انهم لا يعرفون النفاق الوظيفى كما نعرفه فى مصر : ويتعاملون مع وزرائهم وحكامهم ببساطة وبغير تلك الرعشة التى نراها دائما فى اجتماعاتنا الرسمية . حضرت أحد الاجتماعات الكبيرة فى دلهى ورأيت الوزير يدخل ويخرج كانه شخص عادى ودون ان يلتفت حوله أحد . وأثناء النقاش

سمعت صغار الموظفين ينقدون الوزير بغير هوادة ولا رفق ، وكان كل ذلك يبدو عاديا ومألوفا . وعرفت من بعد أن الهنود « وان كانوا موظفين » تعودوا النقاش والنقد الصريح الذى لا يخشى أى راس فى الدولة . وهذا يرجع الي تعدد الاحزاب فى الهند ، والى وجود احزاب معارضة تنقد الحكومة وتشجع الناس على ابداء رايها بغير خوف .

فى نيودلهى عاصمة الهند حديقة مشهورة جميلة اسمها « لودى » سرت فوق أحد ممراتها الحجرية بين مساحات الخضرة وأحواض الزهور . انعكست صورتى فوق سطح البحيرة الصافية ، وزهرة الليلى البنفسجية على سطح الماء بدأت تغلق أوراقها مع اقتراب الغروب كطفل يلف ذراعيه حول جسمه وينام وحيدا فى العراء شمس الغروب دافئة بحرارة الجسم تلون السحب باللون الاحمر والبرتقالى ، تسقط فوق جدران المبانى المغولية وتنفذ من بين ثقوب الابواب الصغيرة المقوسة على الطراز الاسلامى ، أحد الشباب وقف تحت القبة المغولية وراح يغنى . الصوت جميل فيه عذوبة وقوة يتردد بين الجدران العالية والقبة المقوسة المرتفعة لم أفهم كلمات الاغنية لكن الصوت واللحن ووجه الشاب جعلنى أقف واستمع . تجمع بعض الشباب والاطفال ورجل عجوز توقف عن السير واخذ يستمع . عيون الاطفال تلمع كفصوص العقيق ، النني الاسود بارز قوى لامع . لكن بياض العين تشوبه صفرة . معظم العيون فى الهند تشوبها صفرة غريبة كعيون المرضى بالصفراء أو داء الكبد المزمن .

أحد السياح الامريكيين توقف يسمع الغناء . تجمع

حوله الاطفال ، ملامحهم فيها نداء وأذرعهم ممدودة تنتظر ، وانكسارة الفقر والحرمان رغم تلك النظرة اللامعة الذكية المتحدية للجوع والقادرة على الانتصار حتى على الموت .

الشاب لازال يغنى تحت القبة المغولية السوداء . الصوت حزين قوى يصر ؟ بنداء مجهول للسماء . قرص الشمس اختفى تماما ولم يبق الا اللون الاحمر فوق السحب وقمم الاشجار ، نسمة باردة هبت وسقطت ظلال قاتمة فوق البناء القديم ذى الرأس السوداء . كراس الغول تخيلتها وانا طفلة أسمع قصص الخرافات . وكلمة الغول تذكرنى بحصة التاريخ فى المدرسة وانا فى العاشرة من عمرى . المغول أغاروا على الهند وحكموها ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر .

لم تكن مدرسة التاريخ تعرف كيف تثير خيالاتنا . كنا نحفظ عن ظهر قلب بعض الغزوات وبعض الاسماء والتواريخ بغير ترابط وبغير فهم . بقايا ابنية المغول لا تزال هنا قائمة ، مهجورة قبابها السوداء توحى أن داخلها كان يقبع غزاة غلاظ القلوب .

وجوه الهنود فيها سلام وهدوء ، وشىء من الذلة والانكسار . تشبه وجوه بعض الناس فى مصر . ترك المغول والانجليز بصماتهم على وجوه الناس فى البلاد التى استعمروها . لكن بصماتهم هنا فى الهند اشد . ستة قرون وهم يمتصون ثروات هذا البلد . اهم ماخلفوه من آثار هو الفقر .

الذى يسمع عن الفقر فى الهند ليس كالذى يراه . الفقر هو أن يعيش الموت ملاصقا للحياه ، وتمتلىء المدن

والشوارع بالاشباح المشوهة . الامهات كالهياكل العظمية يحملن أطفالا ليسوا الا عيونا وعظاما . أجساد راقدة على الرصيف مغطاه بملايين الذباب كأنها كتل من القمامة الاذرع المعروقة ممدودة ، واليد متكورة منتظرة احدا يلقي في كفها شيئا تأكله . لوحة ثابتة تمثل صراع الانسان الاخير من أجل البقاء . دائما الشحاذون في كل مكان حتى في المطارات . الاطفال الجوعى ، الشباب العميان ، المصابون بالدرن الرئوى ، معظم الوجوه مليئة بالحفر بسبب الجدرى القديم . اعدادهم كثيرة الى حد انك تعتبرهم جزءا لا يتجزأ من الحياة ، ولابد ان تعترف بهم كعالم ضخم يتهدد عالم آخر من الناس يركبون السيارات ويتخمهم الاكل .

الجوع يكسح الحياة هنا كالفيضان . انه لا ياتى . انه دائما موجود كأحد الظواهر الثابتة في الحياه . والناس تحولوا الى عيون سوداء جاحظة ، لا يعيشون ولا يموتون لكن قلوبهم تستمر وحدها في الدق بطريقة مجهولة لا يعرفها الاطباء .

قراءة اساطير الاديان في الهند تكشف أمام العقل كثيرا من الاركان المظلمة . أحد الاساطير تقول ان الملك برتيفى ولد من الفخذ الايمن لابيه فاني . لكن بعض الهنود قالوا لى أن طفل من لحم ودم لا يمكن أن يولد من فخذ رجل وانما لابد أن يولد من رحم امراة عاشرها رجل . وحقيقة القصة هى أن الآلهة أو الملكة بافتى حملت بغير زواج وولدت فاني . وكان الاله أو الملك برتيفى يحبها ويرغب في ارضائها لتقبله زوجا فخرج الى الناس واعلن لهم ان فاني قد ولد من فخذه الايمن . ولان الناس يخشون تكذيب الآلهة أو الملوك فقد صدقه الكثيرون

وانتقلت هذه الاسطورة جيلا بعد جيل واصبحت احدى قصص الهنود الدينية . قالوا لى أنها تشبه الى حد كبير قصة آدم وحواء مع اختلاف فى الولادة ، فقد حدثت هذه المرة من ضلع الرجل وليس من فخذه وقصة مريم وولادة عيسى أو « المسيح » من جسد العذراء التى لم يلمسها رجل وانما هى « روح » الاله هذه المرة التى صنعت فى رحمها جنينا من لحم ودم .

أسطورة هندية أخرى من براهما فاقرات بيورانا تقول أن الاله فيشنو أراد أن يضاجع تولسى زوجة كوزالسانكى ، فتنكر فى ملابس زوجها ودخل الى حجرة نومها وضاجعها . لكن تولسى عرفت بخدعته فلعنته آمرة بتحويله الى حجر . واستطاع الاله فيشنو أن يرد لها اللعنة آمرا بأن يتحول شعرها الى نبات تولس ويتحول جسدها الى نهر جانداك .

هذه الاسطورة يصدقها كثيرون من الهنود ، وحتى اليوم فان اية زهرة فى حوض نهر جانداك تمثل شاليجرام « عضو الذكر » وهى صورة الاله فيشنو . ويعبد الهنود حتى اليوم نبات تولس فى الليلة المظلمة بغير قمر فى شهر اغسطس من كل عام ، ويحتفلون بازدهار نبات تولس بواسطة الشاليجرام « عضو الذكر » ويتباركون به . وهكذا تحولت اللعنة القديمة الى بركة. وهذه هى حياة البشر ، تعيش فيها اللعنات والبركات معا ، مثل الشمس وظلها يحدثان فى اللحظة نفسها والمكان نفسه .

وجدت الهند كالحياه مليئة بالتناقضات . فى الوقت الذى يموت فيه آلاف الهنود من الجوع تضيع كميات هائلة من الطعام على شكل وهبات للمعابد الدينية .

يعالج الانسان هذه التناقضات بان يفصلها الواحدة عن الاخرى ويتظاهر بانه لا علاقة بين الواحدة والاخرى . بمعنى آخر ان الاعتقاد بفكرة دينية يمكن ان يعيش جنبا الى جنب مع التجربة العلمية . الاعتقاد بالفلك والتنجيم يعيش الى جانب علم الفلك . الاستغراق في المتع الدنيوية والشرب واللذة الجنسية الى جانب فلسفة روحية زاهدة في الاكل والشرب والجنس . يعالج الانسان هذا التناقض بأن يفصل بين الدين والعلم ، ويجعل الراس مفصولا عن القلب ، والروح مفصولة عن الجسد ، والفكر مفصول عن الواقع الحي .

يعيش الاديب الهندي هذا التناقض ويعبر عن أزمته وتمزقه بلغة غير لغته الاصلية ، وهذه أيضا مشكلة اخرى مشكلة اللغات المتعددة في الهند تعدد الاديان . احد الادباء الهنود وصف لي هذه المشكلة قائلا : ان الهندي يولد له لغة ، ويتعلم لغة ، ويفكر بلغة ، ويحلم بلغة ، ويكتب بلغة . ولم افهم حقيقة هذه المشكلة الا حينما قابلت احدى الشاعرات الهنديات واسمها « اكيلا » وسألتها عن مشكلة اللغة في الهند فقالت لي : حين ولدت سمعت امي تتكلم لغة البنجاب . حين دخلت المدرسة تعلمت اللغة الانجليزية . حين كبرت قرات الكتب الهندية اكتب الشعر باللغة الانجليزية لانى لا اذكر لغتي الاصلية البنجابية كما انني لا اتقن الهندية . لكن شعري باللغة الانجليزية لا يعبر تماما عني . لانني احلم وابكي بلغتي البنجابية وهي لغتي وانا طفلة . لست راضية عن شعري لانه بلغة اخرى غير لغتي . وهذه مشكلة عامة في الادب الهندي واعتقد انها من اهم الاسباب التي تحول دون ظهور أدب عظيم في الهند ..

وقلت للشاعر « أكيلا » (« أكيلا » هى كلمة عقيلة بالهندية) : قد يكون كلامك صحيحا ، ولكن اللغة فى رايى ليست الا الاناء الخارجي الذى يوضع فيه الشيء كما اننا حين نحلم وحين نبكي لا نفعل ذلك بلغة معينة احلامنا وبكاؤنا له لغة واحدة هى عقل الانسان لكن هذا لا يعنى انك يمكن أن تكتبى شعرا أو ادبا جيدا بلغة لا تتقنيها . اتقان اللغة ضرورى لاى فنان كاتب ، وحينما يتقن الانسان لغة من اللغات فانه قد يعبر بها عن نفسه أكثر من لغة ابيه أو أمه .

وتساءلت « اكيلا » : لماذا اذن لا يوجد فى الادب الهندى شيء عظيم . وقلت لها : لقد قرأت شيئا من الادب الهندى وأعترف أن فيه ماهو عظيم اكثر من بلاد كثيرة . قد تكون اللغة الانجليزية أقل اتقانا ، ولكن المعانى تكون احيانا معان عظيمة وتحملها الكلمات البسيطة بل الركيكة لم أكن اجامل « اكيلا » كشاعرة هندية ، لكنى كنت قد قضيت عدة ليالى ممتعة مع بعض كتابات الاديبات والشاعرات الهنديات . بعضها كتب مباشرة بالانجليزية وبعضها ترجم الى الانجليزية . ولم اكن فى حقيقة الامر اجد فارقا بين الاثنين . ان الافكار الجيدة تظل جيدة بأية لغة وباى شكل والافكار الركيكة تظل ركيكة بأية لغة وباى شكل .

وقالت أكيلا : هذا صحيح ، ولكن اللغة الانجليزية تذكرنا بالاستعمار الانجليزى .

قلت : نعم ، ولهذا بدأتم فى الهند بعد الاستقلال تهتمون باللغات الهندية المحلية . ولكن المشكلة عندكم أن اللغات الهندية تزيد عن سبعة عشر لغة ومن المهم توحيد اللغة حتى يمكن للهندى ان يتفاهم مع الهندى

« في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب أو الوسط » باللغة الهندية وليس باللغة الانجليزية .
وقالت أكيلا : احدى اللغات الهندية وهى « الهندى » Hindi اصبحت هى اللغة الرسمية وسوف تصبح فى المستقبل هى اللغة التى توحد بين اللغات الهندية المتعددة .
قلت لها : حينئذ تستطيع الشاعرات والاديبات والادباء أن يكتبوا باللغة التى يبكون ويحلمون بها .
وضحكت أكيلا . وكنت فى أعماقى أدرك مشكلتها كشاعرة هندية مع اللغة الانجليزية . لقد درست اللغة الانجليزية مثلما درستها « أكيلا » وكثير من قراءاتى الادبية والعلمية بالانجليزية وقد أكتب فى النواحى الطبية والعلمية بالانجليزية ، ولكنى حين أكتب الادب لا اكتب الا باللغة العربية . وقلت لاكيلا أن مشكلة اللغة فى الهند غير موجودة فى مصر . لاننا فى مصر لنا لغة واحدة هى العربية ، نولد بها ، ونحلم بها ، ونبكى بها ، ونتعلمها ، ونتكلم بها فى جميع انحاء مصر بل فى جميع أنحاء البلاد العربية . كما أن الانجليز لم يعيشوا فى مصر كما عاشوا فى الهند ثلاثة قرون . وقد لعبت اللغة العربية لكونها لغة واحدة دورا فى الصمود امام اللغة الانجليزية ولم يستطع الانجليز أن يفرضوها على المصريين كلغة رسمية كما فعلوا فى الهند . لقد ظلت اللغة الانجليزية فى الهند هى اللغة الاولى فى المدارس لسنوات طويلة ، أما فى مصر فقد كانت اللغة الانجليزية هى اللغة الثانية فقط أما اللغة الاولى فقد كانت دائما اللغة العربية .
وقالت اكيلا : ان مشكلتى كشاعرة « وهذه هى

مشكلة جيل من الشعراء والادباء فى الهند » اننى لا اشعر اننى املك زمام لغة واحدة . انني اعرف اربع لغات « الانجليزية ـ النبجابية ـ الهندية ـ الاردية » ولكني لا اسيطر سيطرة كاملة على اى منها . واللغة هي الاداة أو ريشة الشاعر او الاديب ، واذا لم يسيطر الفنان على أداته سيطرة كاملة لا ينتج فنا جيداً . وسوف تظل مشكلة تعدد اللغات فى الهند قائمة حتى تصبح لنا لغة واحدة هى اللغة التى نولد بها والحروف الاولى التى تطرق آذاننا ونحن اطفال فى المهد . نحلم بها ونبكى بها وتكتب بها ايضا .

واهدتنى « اكيلا » ديوانها الاخير الذى كتبته بالانجلبزية . وقرات ابياتها العميقة الرقيقة وهى تعبر عن مأساة قرية فى البنجاب اغرق فيضان النهر بيوتها وحقولها . لم اقرأ فى الشعر الانجليزى الاوربى أجمل من بعض ابياتها وهى تصف عيون الاطفال المشردين الجوعى او تلك الابيات التى تصف بها النهر المقدس الذى كان يتطهر فيه الهنود من آثامهم الدنيوية ثم اذا به يحدث الدمار للقرية . رغم بساطة اللغة والكلمات الا انها تحمل اخطر المعانى . فان اكيلا تسخر بشعرها من بعض الخزعبلات والمقدسات فى بلدها وكتبت تقول كان النهر المقدس لا يغسل آثام الناس ولكنه كان يغسل عرق الفلاحين وطمث النساء وبراز الاطفال المرضى بالاسهال صيفا وشتاء ـ تبدو هذه الكلمات فجة غير أدبية غير شاعرية ، ولكن الفنان الحقيقى يستطيع ان يحول قطع الصخر الى احجار كريمة وجواهر .

قالت لى اكيلا انها بدأت تكتب الشعر بعد ان اشتغلت مدرسة باحدى المدارس الابتدائية وحين كانت تنادى

اسماء اطفال فصلها لتعرف من الغائب تكتشف كل صباح غياب اثنين او ثلاثة اطفال . وتطوى قائمة الاسماء وهى مطرقة ويظل الفصل صامتا بعض الوقت . كان الجميع يعرفون لماذا غاب زملاؤهم او زميلاتهم . الموت فى الهند كان يحصد الاطفال حصدا ابتداء من ايامهم الاولى حتى سن السادسة ، او السابعة او الثامنة ، وعدد وفيات الاطفال الاناث اكثر من الذكور ، فالطفلة الانثى فى الهند « كغيرها من البلاد » تنال من الاهمال والتجويع اكثر مما يناله الطفل الذكر .

« اكيلا » لا تزال شابة فى الاربعين ، لكن ملامحها الدقيقة البريئة تشبه ملامح فتاة فى الخامسة عشر ، وصوتها ناعم رقيق كصوت الاطفال . اما حين تخطر داخل عينيها تدهشك هذه النظرة العميقة الغائرة الموغلة فى السن كنظرة رجل عجوز فى السبعين من عمره . وكان ذلك سر جاذبيتها وقوتها . ان الالم هو الذى يصنع الانسان . لكن الفنان الحقيقي هو الذى يحول الالم الى فن جيد ويظل الفنان رغم السنين شابا قويا بل يظل طفلا بريئا رقيقا رغم تراكم الخبرات فى قاع عينه .

وقالت اكيلا : ماتت اختى وهى فى الخامسة من عمرها قبل أن اشترى لها « السارى » الاحمر الذى وعدتها بشرائه . وماتت أمى قبل أن أستلم أول مرتب لى وأعوضها عن شقائها . اما حياتى انا فهى صراع مستمر من اجل البقاء على ظهر الارض ـ انا لا اتزوج ولن اتزوج ولكنى أعيش الحب .

شعرت صباح اليوم بقلق غريب نحو طفلى الصغير

الذى تركته بالقاهرة مع ابنتى الكبرى . تذكرت اننى حلمت بالامس حلما مزعجا ، نسيت تفاصيله فى الصباح لكنه تركنى بذلك الشعور المقلق الذى دفعنى الى ان امسك التليفون واطلب بيتى فى القاهرة .

لم أكن أعلم اننى ساضطر للانتظار أربعة عشر يوما بلياليها ، وكل يوم يدق الجرس ويأتينى صوت عاملة التليفون الهندية تقول : ستكون معك القاهرة بعد لحظات ارفعي السماعة . واظل رافعة السماعة طويلا ثم يأتينى صوتها مرة أخرى تقول : معذرة ، وجدنا خط لندن مشغول واتساءل فى دهشة : لندن ؟ وما شأنى انا بلندن . انا أريد الاتصال بالقاهرة ؟

وتقول العاملة الهندية : ولكن جميع الخطوط عن طريق لندن ، وخط لندن مشغول طول الوقت . دهشت أول الامر لكنى تذكرت أن الانجليز استعمروا الهند ومصر فترة من الزمن ، ولكن بعد خروج الانجليز من الهند ومن مصر لماذا لا يكون هناك خط مباشر بين دلهى والقاهرة ؟

بالطبع ظل خط لندن مشغولا ، وبعد اربعة عشر يوما جاءنى صوت ابنتى من القاهرة ، ولم استطع أن أسمع الكلمات بوضوح وضاعت دقائق المكالمة هباء دون أن اسمعها أو تسمعنى .

الادب الهندى ايضا لا يصل الى القاهرة « كخطوط التليفون » الا عن طريق لندن . نحن لا نقرأ من الادب الهندى ألا ما يترجم الى الانجليزية فى لندن . والهنود ايضا لا يعرفون من الادب العربى الا مايترجم الى الانجليزية فى لندن . ولندن لا تترجم من الادب الهندى او الادب الا ما يروقها ، وما يتفق مع نظرتها الى الهند

او العرب . ولهذا فان أعظم مافى الادب الهندى او العربى لم يترجم فى لندن . وظل مغلقا فى السوق المحلية ولم يصل الى السوق العالمية . وبالطبع لم يحصل على جائزة نوبل . ولهذا أيضا لم نسمع عن اديب عظيم فى الهند كما نسمع عن هؤلاء الادباء العالميين من أمثال هيمنجواى وكافكا وفولكنر وشتاينبك وغيرهم مع أن الذى يذهب الى الهند ويقرأ بعض انتاج الادباء والاديبات فى ولايات الهند المختلفة يكتشف أن فى الادب الهندى ماهو عظيم ، وما هو أكثر خصوبة وتنوعا من بعض انتاج الادباء العالميين الذين درجنا على انهم هم العظماء وحدهم .

وكما حرمت المستعمرات من خيراتها وثرواتها المادية فقد حرمت أيضا من ثرواتها الفكرية والادبية والفلسفية وكما حرمت المستعمرات من كبريائها وكرامتها الوطنية حرمت أيضا من كبريائها وعظمتها فى الادب والفن أو العلم والفلسفة .

ان من يدرس الفلسفة الهندية القديمة يدرك انها تحتوى على أفكار ومعان أكثر عمقا من بعض فلاسفة الغرب المشهورين بل ان بعض هؤلاء الفلاسفة العالميين قد أخذوا الكثير من أفكارهم من الفلسفة الهندية القديمة .

اعتكفت عدة أيام فى البيت وقرأت كتاب « الجيتا » وهو أهم الكتب المقدسة للدين الهندوكى ويحتوى على فلسفة هذا الدين العريق ، وكان الهنود يقرأونه حينما كانت أوربا غارقة فى ظلام الجهل . ودهشت وانا أقرأ « الجيتا » فقد وجدت فيها كثيرا من الافكار الحديثة فى علم النفس ، والفلسفة . فى أحد فصولها عن النفس البشرية وتقسيماتها خيل الى اننى أقرأ أفكار

« رونالد لينج » أحدث علماء النفس فى انجلترا اليوم ،
تقسم « الجيتـا » النفس الى نفس غير حقيقيـة وتسميها اللا نفس . والنفس الحقيقية وتطلق عليهـا اسم « النفس » .

أما علماء النفس المحدثون فيستخدمون كلمة النفس المزيفة . والنفس الحقيقية . وهناك بالطبع اختـلافات فى التحليل والشرح ولكن كم يأخذ هؤلاء العلمـاء الاوربيون من الفلسفات القديمة وكم يتجاهلون مصادرها الحقيقية .

وكما طمس الأوربيون والمستعمرون الحضـارات القديمة التى أزدهرت فى الشرق مثل الحضارة المصرية القديمة ، حضارة الهند ، حضارة العرب وغيرهم فقد طمسوا ايضا أدبهم ــ وثقافتهم الحاضرة .

وتدخل « الجيتا » بعمق فى تحليل النفس البشرية، وفى الامور الفلسفية وتنكر وجود قوى خارج الانسان مجهولة له . تقول « الجيتا » ان هذا الشىء الذى داخلنا والذى يرصد حركتنا هو النفس الحقيقية وهى ساكنة ثابتة حيث لا يمكن لها مراقبة النفس الاخرى الا من موقع ثابت ساكن . هذه النفس الساكنة الثابتة هى النفس الخالدة فى رأى « الجيتا » أى هى « الله » . بمعنى آخر ان « الله » داخل الانسان وليس خارجه ، وهذا المعنى هو احد المعانى الحديثة التى عبر عنهـا بعض الفلاسفة المحدثين من أمثال اريك فروم ورواد ما سمى بالفلسفات الانسانية . تقول « الجيتا » أن أى انسان يمكن أن يكون الها اذا ما ابتعد عن نفسـه غير الحقيقية واقترب من نفسه الحقيقية الخالدة ، أن النفس غير الحقيقية هى النفس النهمة الى المـلذات المادية الدنيوية الزائلة . أما النفس الحقيقية فهى التى

تنتصر على تلك الرغبات وتعلو عليها وتصل الى اكتشاف جوهر السعادة الحقيقية التى لا تزول وتدعو « الجيتا » الانسان الى أن يفكر طويلا وأن يحاول أن يصل الى نفسه الحقيقية عن طريق الزهد والعزلة والانفصال عن الحياة والتفكير العميق الطويل . لكنها تقول للانسان فى بعض اجزاء منها أنه لابد أن يعمل فى الحياة بغير كلل أو ملل . والسؤال هنا أليس من حق الذى يعمل أن ينال عن عمله أجرا يساعده على الاستمتاع بما فى الحياه من ملذات ؟ كيف اذن تدعوه « الجيتا » الى العمل ثم تدعوه الى الزهد والانعزال عن الدنيا وما فيها ؟ هذا تناقض واضح تحاول « الجيتا » أن تفسره بأن تقول أن الوصول الى النفس الخالدة الكلية أمر بالغ الصعوبة ولا يصل اليه الا القلة من صفوة الناس .

وهناك عبارة فى « الجيتا » تقول فيها للناس مامعناه أن اعملوا وانظروا الى العمل ذاته ولا تتطلعوا الى ما سيعود عليكم من هذا العمل . وبرغم هذه الفلسفة العميقة الانسانية القائمة على الفعل والتفكير والتامل الا اننى لا اتفق مع هذا الرأى الذى يدعو الناس الى العمل دون أن يتطلعوا الى نتائج العمل ، لان هذا الاتجاه يسهل لغيرهم أن يستغلهم ويربح من وراء جهودهم وعملهم . وقد وجدت فى « الجيتا » رغم ارتفاع قيمتها الفلسفية والفكرية بعض التناقضات التى لا يخلو منها أى دين من الاديان ، لكنها فى رأيى من اكثر الكتب الدينية اعتمادا على الفعل والتفكير المنطقى الفلسفى وليس على المعجزات والخرافات والاحكام القاطعة التى لا تقبل المناقشة . ان الانسان هو المعجزة الوحيدة فى « الجيتا » وهى تحثه على أن يكتشف نفسه وقوته

العظيمة الداخلية ولا يكون ضحية للظروف الخارجية . انها تقول أن الانسان سيد نفسه وسيد الظروف الخارجية أيضا ويجب الا يرضخ لها وأن يغيرها لصالح الناس جميعا .

كنت اتساءل دائما لماذا لا يخاف الانسان الهندي الموت كما نخافه نحن . ووجدت الاجابة على هذا التساؤل فى « الجيتا » انها تقول ان الموت ليس موتا وانما هو انتقال الروح من جسد الى جسد آخر افضل من الجسد الاول . كما نفرح نحن بانتهاء الطفولة وانتقالنا الى مرحلة النضوج يفرح الهندى بالموت ويرحب به كانتقال الى حالة افضل واكثر نضوجا .

تقول « الجيتا » أيضا ان التغير هو قانون الحياة الوحيد الذى لا يتغير ، وأن الخلود هو الحالة التي يصل اليها عقل الانسان حين يقبل أن كل لحظة وكل تجربة وكل عقل وكل جسم وكل شيء فى الحياة ليس خالدا . كل شيء فى العالم يتغير . الحر والبرد فلماذا يضايقنى الحر او البرد ؟ كل موقف يتغير ، الحزن او الفرح ، النجاح أو الفشل ، فلماذا يضايقنى الحزن او يسعدنى الفرح ؟ الهندى الحكيم فى رأى « الجيتا » هو الذى لا يفرح ولا يحزن ولا يتألم من حر او برد أو جوع أو عطش . يقول اللورد كريشنا فى احدى فقرات « الجيتا » ، « هذا الانسان الصلب ، الذى أصبح لديه الفرح والحزن سواء بسواء ، انه أهل لان يفهم خلود الروح » .

من هذه الفلسفة ظهر فى الهند هذا الاتجاه الى الانتصار على الالم وتحمل كافة انواع التعذيب كالنوم فوق المسامير ، ورفض اللذات ومنها الطعام والجنس

واستعذاب الحرمان والآلام . وقد اثرت هذه الفلسفة الهندية القديمة في غاندي وأصحابه وفي كثير من زعماء الهند بل في كثير من افراد الشعب الهندي العادي . لا اظن ان احدا في العالم يستطيع أن يتحمل الفقر والجوع كما يتحمله الانسان الهندي . هذه الفلسفة لها ميزات ولها عيوب . من ميزاتها انها تقوى الناحية النفسية والروحية في الانسان ، لكنها من ناحية اخرى تضعف رغبته في محاربة اسباب الفقر والجوع بل تجعله فريسة سهلة للمستغلين والمستعمرين .

وقد حاول الانجليز طوال استعمارهم للهند أن يزيدوا من فلسفة الزهد هذه كما فعلوا بالاديان في المستعمرات الاخرى .

في بعض فصول « الجيتا » شرح علمي طويل للنفس الانسانية : ومراحل العمر المختلفة . تقول « الجيتا » أن طفولتنا ليست الا مرحلة تموت وتولد بعدها مرحلة الشباب التي تموت بدورها وتولد الشيخوخة . ولكننا نذكر الطفولة والشباب والتجارب التي مرت في حياتنا وانتهت .

هذه الذاكرة التي ترصد حركتنا وتجاربنا التي تبدأ وتنتهي لابد أن تكون هي ساكنة ثابتة . لا يمكن لنا أن نرصد حركة الشيء ونحن نتحرك داخله . لا نعرف حركة القطار ونحن داخله . وكذلك النفس الانسانية . لكل انسان منا نفسان . نفس تتحرك وتعيش التجارب ونفس اخرى ساكنة لا تتحرك ترقب النفس الاخرى . تقول « الجيتا » أن النفس الساكنة الثابتة هي النفس الخالدة غير المتغيرة وهي الحقيقية وهي الواعية . أما النفس المتحركة فهي غير حقيقية وهي زائلة ، وهي متغيرة وهي غير واعية بما يحدث لها لانها عاجزة عن الرصد

والمراقبة وبالتالى عاجزة عن الوعى وادراك حقيقة الامور .

تحث « الجيتا » الانسان على أن يكافح من اجل أن يصل الى نفسه الحقيقية غير المتغيرة وبهذا ينتصر على الموت ويظل حيا وان مات جسده ، فالجسد ليس الا جزءا من النفس غير الحقيقية الزائلة .

يقول اللورد كريشنا « لارجونا » فى احدى فقرات « الجيتا » : ـ

« حارب ، لا تخشى الموت وانت تقاتل . حين يقتل جسدك فسوف تظل نفسك الحقيقية خالدة . كما تخلع ملابسك تخلع النفس الجسد عند الموت وترتدى جسدا آخر جديدا أكثر تناسبا لها . رسالة كرشنا للانسان هى أن يتسم ، فالانسان الحكيم هو الذى لا يحزن أبدا ، أما البكاء فليس الا للبلهاء . ان الحياة ليست الا سلسلة متصلة لا نهائية من الولادة والموت والولادة والموت . والانسان لا يموت أبدا وانما يتخذ جسده من كل موت أشكالا مختلفة . وهذه الفكرة تشبه ماقاله الماديون من أن المادة لا تفنى وانما تتحول الى اشكال اخرى من المادة . جسد الانسان يتحول عند الموت الى كربون وغازات تدخل فى تكوين كائنات اخرى حية وهكذا . وكما قال الفلاسفة أن قانون الحياة الوحيد الثابت هو قانون التغيير ـ قالت الجيتا أيضا هذه الحقيقة . لكن « الجيتا » فصلت بين الفلسفة وبين الحياة التى يعيشها الانسان واوقعت الانسان العادى فى تناقض شديد مثلها مثل الاديان الاخرى التى فصلت بين الدين والدنيا . كما انها أسست فلسفتها على وجود المطلق وهو النفس الخالدة غير المتغيرة ، على حين أن

الفلسفة المادية تقول ان كل شيء فى الحياة نسبى وليس هناك شيء مطلق .

وتدخل الجيتا ايضا فى شرح قانون السببية فى الحياة وتقول أن كل شيء له سبب لكنها تقول ان هناك عالمين .. عالم الاسباب وهو غير مرئى وعالم المسببات وهو العالم المرئى وأن الخروج من العالم اللامرئى الى العالم المرئى هو نوع من الخلق ويتبع قانون السببية .

تقول « الجيتا » أن الذى يخلق هو الانسان حين يدرك عظمة نفسه . أما الانسان الضال فهو هذا الذى نسى عظمة نفسه . الله هو الانسان حين يدرك عظمة نفسه . لورد كرشتا كان انسانا عرف عظمة نفسه ولهذا استطاع أن يخلق الجيتا . الخلق يحدث مرة واحدة ويعجز الانسان عن أعادة ماخلقه مرة ثانية . لورد كريشنا نفسه عجز عن أعادة « الجيتا » حين طلب منه « ارجونا » أن يكتبها مرة أخرى . هذا الخلق العقلى والفنى والالهام ليس الا اتحاد الانسان بنفسه وهو يتطلب جهد وصبر وقدرة على التركيز على النفس من أجل اكتشافها .

وقد وجدت أن « الجيتا » كانت أكثر من العقل الغربى الحديث أدراكا لماهية الالهام الفنى وضرورة الجهد الانسانى والعمل المتصل للوصول اليه . كثير من المفكرين فى الغرب قالوا ان الالهام الفنى عملية مجهولة وتأتى للانسان بالصدفة . بعضهم قال ان الالهام يهبط من السماء . لكن الدين الهندوكى لا يعترف الا بالجهد الانسانى ، وليس فى هذا الدين اله سوى الانسان ، وليس فيه معجزات امام الانسان الخلاق الذى عرف نفسه واكتشفها .

وتشرح « الجيتا » فلسفة « اليوجا » وتقول أن اليوجا

هي وصول الانسان الى النقاء العقلي ، او الى الارتفاع فوق « الانا » وفوق العقل العادي والتحرر من الاضداد في الحياه . لان الحياة تقوم على الاضداد ، على الخير والشر ، على الفرح والحزن ، على الالم واللذة وهكذا . .
اليوجا ارتفاع فوق كل هذا . معنى ذلك أن ينتصر الانسان على الالم وعلى اللذة أيضا ويصبح بغير الم وبغير لذة .

اليوجا هي فن العمل بغير لذة وبغير ألم . هي أن يصبح الانسان منفصلا عن رغبات « الانا » جميعا سواء كانت رغبات خير أم شر .

وتقول الجيتا أن فن الحياة هو أن تعيش هذه اللحظة الحاضرة لانها اللحظة الحقيقية الوحيدة ، فالماضي مات ، والمستقبل لم يولد بعد . لا تندم ولا تحزن على اى شيء مضى ، ولا تأمل ولا تخاف من اي شيء سيحدث في المستقبل . ذكرني هذا باغنية زوربا اليوناني حين قال : لا أخشى شيئا . لا آمل شيئا . أنا حر ــ تقول « الجيتا » عش هذه اللحظة الحاضرة بكل ماعندك . انسى نفسك أو اعط نفسك كلية لهذه اللحظة . حينما تقوم بعمل ما اعط نفسك تماما لهذا الشيء الذى تعمله تكتشف أنك قد خلقت شيئا عظيما .

أن تنسى نفسك في اللحظة الحاضرة معناه أن تنسى أحزان وأفراح الماضي وأن تنسى آمال ومخاوف المستقبل .

بعبارة أخرى أن تكون حرا . معناه أن تنسى « الانا » وتعيش ملتصقا « بالنفس » الخالدة فيك أو « الله » داخلك . أن تكون كالجبل او البحر أو المحيط الذى لا يؤثر فيه شيء . هنا القوة والانتصار على كل شيء

في الحياه ، والوصول الى حالة من السمو فوق الخير والشر معا .

بهذا كله لا ينشغل عقلك فى القلق أو الخـوف أو الترقب أو الندم أو الامل أو غير ذلك من هذه المشاعر والرغبات . يتفرغ العقل تماما لما هو يعمله في هـذه اللحظة .

تقول الجيتا أن هذا التفرغ الكامل هو سر العبقرية وسر قدرة الانسان على الخلق ، وسر النجاح فى العمل والفن واى شيء آخر .

لكن نسيان النفس أو اغراق النفس فى اللحظة تحتاج الى جهد وتركيز شديدين . انها حالة ادراك نفسية عالية جدا وعظيمة القوة . هذه القوة التى لا توصف « تسميها الجيتا المايا » مثل قوة الكهرباء التى لا ترى .

هذه القوة لا ترى الا فيما تحدثه من آثار الكهرباء لا ترى الا من خلال تحريكها للالات الضخمة .

وهذه القوة النفسية العالية بمثل الكهرباء ، لا تري ولكنها تجعل الانسان قادرا على القيام بأعظم الاعمال وتحريك الصعب .

حين يصبح العقل نقيا من خلال الاغراق الـكامل فى اللحظة الحـاضرة والتفاني فى الشيء الذى يعمله فانه يصبح قادرا على أن يخترق « حجاب الجهل » الذى يفصله عن عظمة نفسه الكلية . هذا الحجاب من الجهل تصفه « الجيتا » على أنه يشبه النسيج الرقيق الشفاف من الشك وتردد الانسان فى فهم نفسه أو ممارسة قوتها وهذا مايسمى بالقوة الخارجية أو المضللة .

ولكن قبل أن يصبح العقل نقيا تماما وقبل أن يصبح قادرا على الرؤية من خلال ذلك الحجاب وقبل أن يصل

الى تلك العظمة التي تشع حرارة وضوءا كالشمس فانه لابد أن يعرف العالم الخارجي ولذائذه كنوع من التسخين الصناعي « يشبه مدفأة صغيرة كهربية أو من نار الفحم » ، ولكن حين يكتشف الشمس فسرعان مايهجر تلك النار الصغيرة ويخرج الى الخلاء والرحابة والشمس ، ويحصل الانسان على الحكمة والمعرفة ، ويستطيع أن يفرق بين « النفس » و « اللانفس » أو بين الحقيقى وغير الحقيقى ، ويصبح كل شيء فى العالم أمامه سواء ، لا يفرح ولا يحزن ، ولا يغضب ولا يأمل ولا يخاف ولا يقلق . يصل عقله الى حالة الاستقرار الكاملة حيث لا يهزه شيء ولا يغيره شيء . هذا الانسان تقول عنه « الجيتا » انه قد حصل على الحكمة أو « اليوجا » ، أو قيمة الوعى .

مثل هذا الانسان يصبح أهلا للزعامة أو النبوة او لقيادة غيره من الناس للوصول الى الحكمة والمعرفة . ولكنه قد يكون مكروها بسبب قوته العظيمة ، فالناس يخشون الشخص الذى لا ينفعل مثلهم ولا يتأثر ولا يغضب ولا يفرح ولا يؤثر فيه شيء . انهم قد يطاردونه وقد يقتلونه كما فعلوا مع بعض الزعماء والانبياء وأصحاب الرسالات .

ذكرني هذا التحليل فى « الجيتا » برواية « فولكنز » بعنوان « ضوء في أغسطس » كان بطل هذه الرواية « كريسماس » لا يغضب ولا يفرح . وكان الناس يندهشون له ولا يرونه الا مستغرقا فى عمله أو مستغرقا فى تدخين سيجارة مثلا . وانتهى به الامر الى أن قتلوه لاسباب متعددة . اما صديقه الآخر « براون » فكان على عكسه ، كان كتلة من الانفعالات يضحك ويغضب

فى اللحظة الواحدة عدة مرات ، وكان الناس يحبونه لكنهم فى أعماقهم يحتقرونه . أما « كريسماس » فكان مكروها لكنهم فى أعماقهم كانوا يحترمونه ويعجبون بقوته ويتمنون أن تكون لهم مثل هذه القوة .

تقول « الجيتا » أنه بالوصول الى الحكمة وهذه الدرجة العليا من الوعى فان الانسان يصل أيضا الى السعادة . هذه السعادة لا يصل اليها الانسان الا بعد أن يجتاز ثلاث مراحل :

١ ـ معرفة لذائذ ورغبات جسمه وعقله عن طريق التجربة .

٢ ـ التخلص من هذه اللذائذ والآلام معا والوصول الى حالة عدم الرغبة فى شيء .

٣ ـ الوصول الى لذة جديدة هى لذة الوصول الى « النفس » .

اذا توقف الانسان عند أية مرحلة من هذه المراحل يصبح انسانا شقيا أو مريضا . لابد أن يكمل الطريق كله ليصل الى السعادة الايجابية الحقيقية . ان المرحلة الاولى وهى معرفة لذائذ الحياة ليست الا سعادة مؤقتة سلبية . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة شقاء وتعاسة ومرض نفسى اذا لم يكملها الانسان بالمرحلة الثالثة ويكتشف اللذة الجديدة .

ويشبه هذا التحليل ما كتبه « اريك فروم » عن الحرية السلبية والحرية الايجابية ، وهى تكاد تكون موازية للسعادة السلبية والسعادة الايجابية . ويقول اريك فروم أن الحرية السلبية وحدها تسبب القلق والتعاسة والوحدة وغربة الانسان عن نفسه ، أما السعادة الايجابية فهى تعيد صلة الانسان بنفسه الحقيقية

والعالم من حوله فلا يشعر بالوحدة ولا الشقاء .
ويشبه أيضا تحليل « رونالد لينج » حين كتب « عصفور الجنة » وقد وصف « لينج » رجلا تناول عقارا من عقارات الهلوسة الحديثة وتسمى عقارات « سيكوليك » وأنه استطاع أن يخترق حجاب الجهل « مع الفارق فى التشبيه » وأن يصل الى درجة أعلى من الوعى الى حد أنه أحس أنه الله . ووصف « لينج » حالة الخوف التى تصاحب التجربة . وحالة أشبه بالجنون وفقدان العقل ، لكن ما أن يجتازها الانسان بشجاعة وقوة حتى يصل الى تلك الدرجة العالية من الوعى ويكتشف نفسه وقوته .
من خبرتى مع بعض حالات الادمان بعقارات مختلفة ومنها ل . س . د وصف لى المدمنون حالتهم حين يجتازون بواسطة العقار حاجز الخوف ويصلون الى تلك الحالة المدهشة من الرؤية الجديدة التى توحى اليهم بأفكار فنية عالية .
لم تتكلم « الجيتا » بالطبع عن تلك العقارات ، لانها لم تكن تعرفها . لكن بعض علماء النفس قارنوا بين الوصول الى تلك الرؤية الجديدة عن طريق العقارات « أى صناعيا » وبين الوصول اليها عن طريق اليوجا وهو الطريق الطبيعى الشاق الطويل قالوا أن الذى يصل اليها عن طريق العقار كالذى يسرق بسرعة شيئا وقد ينجو وقد يقع وينتهى تماما . أما الذى يصل عن طريق مراحل اليوجا المتدرجة الطويلة فانه فى مأمن من الجنون أو الشقاء ألا اذا توقف فى منتصف الطريق . ولهذا ينصح هؤلاء العلماء الناس بالا يقدموا على مثل هذه العقارات . أو مثل هذه اليوجا الا اذا كانوا واثقين

من قدرتهم على الاستمرار والصـــمود والتغلب على الصعاب التى تقابلهم أثناء الطريق الوعر الخطر .

ان خطورة هذه التجارب هى أننا البشر قد تعودنا على أن الحقيقة هى مانراه وما نسمعه وما تعرفه حواسنا لكن الانسان الذى يصل الى درجــة أعلى من الوعى ويرى أشياء لا يراها الآخرون . هذه الاشياء التى يراها يكتشف حقيقة أخرى تسمى « الحقيقة غير العـادية » بقوة ابصاره الجديدة هى أشياء حقيقية ، لـكنها فى نظر الاخرين غير حقيقية لانهم لا يرونها مثله . ولهــذا يصبح هذا الشخص مجنونا فى نظر الناس . وقـــد يصبح مجنونا أيضا فى نظر نفسه وهنا الخطر . لان الانسان اذا ما فقد الثقة فى نفسه وعقله انهـار تماما وأصبح مجنونا بالفعل لكنه اذا حافظ على ثقته بنفسه وعقله فسوف يمر بالتجربة دون خوف ويجتاز حاجـز الخوف ويصل الى المرحلة النهائية من السـعــادة أو الحرية أو الحكمة أو القوة .

وتختلف قدرات الناس حسب ثقتهــم بأنفسهم . الانسان القوى هو الواثق فى نفسه الذى يفعل ما يراه صائبا وليس ما يراه الناس صائبا . أما الشخص الفاقد الثقة بنفسه فانه يفعل ما يراه الناس صائبا بصـرف النظر عما يراه هو . وبين هذين الاثنين يتدرج الناس انواعا مختلفة حسب درجات ثقتهم بأنفسهم .

قضيت عدة أيام وليالى أقرأ « الجيتا » ، وأفكر ، وأتذكر كثيرا مما قرأته حديثا وقديما ، بل أتذكر حوادث فى طفولتى نسيتها . كانت « الجيتا » أشبه بعمل فنى عظيم يثير أحاسيسى وافكارى بل أشبه بعمـل علمى عظيم يشرح النفس ويذكرنى بقراءاتى فى علم النفس

والفلسفة والاديان . « الجيتا » كتاب دينى . وهو كتاب الدين الهندوكى لكنى وجدته مختلفا عن الكتب الدينية التى قراتها للديانات المختلفة وقد فكرت فى أن أعمل دراسة عميقة نوعا ما اقارن فيها بين « الجيتا » وبين الكتب المقدسة الاخرى السماوية منهـا وغير السماوية . وقد أفعل ذلك يوما .

وقد وجدت فى « الجيتا » من أفكار فلسفية عميقة وعلم نفس ومنطق منظم يعتمد على الفكر والعقل أكثر من كثير من الكتب الدينية الاخرى التى تورد بعض الاحكام والمعجزات بغير تحليل وبغير منطق علمى أو فلسفى ، وانما تعتمد فقط على نوع من الايمان الاعمى بحقائق ثابتة .

***

قالوا لى فى دهشة : الم تذهبى الى جايبور ؟ قلت : ماذا فى جايبور ؟ قالوا : جميع السياح يذهبون الى جايبور . قلت : ولكنى اذهب الى حيث لا يذهب السياح ، فأنا اريد أن أعرف الهند الحقيقية . قالوا : لابد اذن أن تذهبى الى جايبور .

أعطتنى المضيفة الهندية جريدة الصباح . « اليوم ٢١ فبراير ١٩٧٥ » قرأت فى الصفحة الاولى خبرا يقول أن البوليس ضبط كميات كبيرة من الذهب والمجوهرات ومائة مليون روبية فى احدى الحجرات السرية داخل احد المهراجا فى مدينة جايبور بولاية راجاستان . قام البوليس بحملة تفتيش كبيرة فى قصور جايبور ، واغلقت هذه القصور لمدة ستة أيام متصلة ولم تفتح ابوابها مرة اخرى للسياح الا منذ ثلاثة أيام .

قلت لمضيفة الطائرة : اذن لو حضرت الى جايبور

منذ ثلاثة ايام لما استطعت أن أزور هذه القصـــور .
وابتسمت المضيفة السمراء الجذابة وقالت : نعم . انت محظوظة .

وسالتها : ما هذه القصور المشهورة في جايبور ؟

قالت : هذه القصور كان يملكها حكام راجاسنان . لم تكن ولاية واحدة كما هي الآن ولكنها كانت مقسسمة الى عشرين ولاية ولكل ولاية منها مهراجا ، ولــكل مهراجا عدد من القصور الضخمة . وقد عثر البوليس على هذه الاموال والمجوهرات في حجر نوم سرية داخل القصور .

وسالتها : ومن يعيش الآن داخل هذه القصور ؟

قالت : بعضها أصبح متاحف يقصدها الســياح ، وبعضها تحول الى فنادق درجة أولى ، وبعضها لايزال يسكنه أولاد المهراجا وزوجاتهم .

هبطت الطائرة الصغيرة في مطار جايبور . انطلـق نحونا رجل هندى « يقوم بدور المرشد للسياح » وأخذ يعرض علينا خدماته . وأخذنا الى العربة الهنــدية الصغيرة وركب الى جوار السائق بعد أن قال له بالهندية بضعة كلمات .

في الطريق الى المدينة رأيت قصرا ضخما قائما فوق ربوة عالية . وقال المرشد الهندى . هذا أحد القصور الخاصة التي لا يدخلها السياح .

قلت : ومن يعيش في هذا القصر الضخم ؟

قال : ابن المهراجا الذى كان حاكما لهذه الولاية قبل الاستقلال .

سألت : هل فتشوا قصره ضمن القصور التي فتشها البوليس في الايام السابقة .

قال : نعم . وقد وجدوا جواهر وملايين الروبيات .
قلت : وماذا فعل ابن المهراجا ؟
قال : لا شيء . ترك القصر مؤقتا وذهب ليعيش فى قصر آخر ثم عاد الى قصره بعد انتهاء التفتيش . انه بغير قوة وبغير سلطة الان ولكنه يملك اموالا طائلة .
قلت : هل هو الابن الوحيد للمهراجا ؟
قال : لا . ان ابناء هؤلاء المهـــراجات كثيرون وهم ينفقون ببذخ ويعيشون فى القصور ويخفون الاموال فى حجرات سرية حتى لا يدفعوا عليها اية ضرائب .
قلت : هذا على حين يجوع الملايين فى الهند .
قال باسى : نعم . لكن الحكومة الآن بدات تفتش قصورهم .
قلت : من هو اشهر مهراجا سابق حكم هنا ؟
قال : انهم كثيرون ، ومن اشهرهم المهراجا مادوسبنح وسوف ترون قصره الآن .
وانطلقت بنا السيارة فى شوارع جايبور ، تشبه الشوارع فى اى مكان بالهند . وحركة الشارع متشابهة والوجوه متشابهة ..
جايبور يحوطها سور ضخم قديم بناه الحكام السابقين يشبه سور مدينة مصر القديمة لكنه اكثر ضخامة . لهذا السور ثمان بوابات ضخمة ، احداها بوابة ملكية لا يدخل منها السياح ولكنها مخصصة حتى الآن لابناء وبنات المهراجا السابق . هى مغلقة طول العام . ولا تفتح الا حين يرغب احدهم فى زيارة المتاحف الداخلية .
دارت السيارة حول السور لتصل الى البوابة الخاصة بدخول السياح . لاحظت أن وجوه الناس فى الشوارع والدكاكين اقل اعياء واكثر صحة من المدن الاخرى .

وعرفت أن جايبور من اغنى المدن فى الهند « ترتيبها فى الثراء رابع مدينة » وذلك بسبب توافـر الاحجار الكريمة بها . يعمل فى جايبور وحدها أكثر من ٥٠٫٠٠٠ عامل فى قطع الاحجار الكريمة . لكن معظم الوجوه تعلوها الحفر والبقع مما يدل على أن مرض الجدرى كان منتشرا هنا منذ سنوات . الشوارع تعلوها البقع الحمراء ، ومن حين الى حين ألمح رجلا يبصق ذلك البصـــاق الاحمر بعد أن مضغ ورقة « البيقل » فى الايام الاولى لزياراتى للهند كنت الاحظ أن أفواه معظم الرجـــال حمراء . حين يفتح الواحد منهم فمه ليتكلم أو يتثاءب يظهر فمه من الداخل ملونا باللون الاحمر . وفى بعض الاحيان تكون الشفاه أيضا من الداخل ومن الخـــارج حمراء كأنما دهنت بصبغة حمراء أو انها تنزف على الدوام دما احمر .

ومن أهم الاشياء التى تلفت النظر فى الهند تلك العادة الغريبة التى يمارسها الرجال « وبعض النساء » فى جميع أنحاء الهند . مهما اتجهت شمالا أو جنـــوبا أو شرقا أو غربا تدرك أن هذه العادة منتشرة بين معظم الرجال وبين عدد غير قليل من النساء .

ترى الرجل منهم قد جلس ، وأخذ يمضغ فى فمـــه شيئا . وبعد قليل ترى لعابا أحمر اللون يسيل عنـــد زاويتى فمه . وبعد مدة قد تطول وقد تقصر تراه يبصق على الارض لعابا أحمر بلون الدم .

كنت أندهش حين أرى شفاه الرجال حمراء مـــن الداخل أو حين أرى تلك البقع الحمراء المنتشرة فوق شوارع اية مدينة فى الهند . وادركت من بعد أن هذا يرجع الى تلك العادة ، عادة مضغ ذلك الشىء .

ذكرتني هذه العادة برحلتي الى اليمن ، حين رأيت الرجال والنساء في عدن يجلسون ويمضغون القات ويسيل لعابهم من زاويتي الفم . لكن ذلك الشيء الذي يمضغ في الهند ليس هو القات ، وانما هو ورقة شجرة اسمها « البيقل » يلف داخلها قطعا صغيرة صلبة من ثمرة تشبه جوزة الهند وقد خلصت بمسحوق أحمر من الجير الحجري على شكل عجينة ، يقولون ان هذه التركيبة حين تمضغ على مهل تصيب الانسان بحالة اشبه بالشبع وهو شبع مزيف يقاوم به فقراء الهنود الجوع وقلة الطعام ، لكنه أصبح من بعد عادة معظم الناس . لانه يحتوي على مادة مخدرة تسبب ذلك الشعور بالشبع وتسبب أيضا نوعا من الادمان . وقد مضغت هذا الشيء مرة واحدة كما مضغت القات في اليمن مرة واحدة ولم أشعر بأية لذة . وهذا طبيعي لان مثل هذه المواد تحتاج الى تكرار لتنشأ العادة . ان الذي يذوق الخمر لاول مرة يبصق بسبب مرارتها ولكن بعد التعود يدمنها ويحبها . ولكل شعب مواده الخاصة وادمانه الخاص حسب مشاكله وحسب المواد التي ينتجها ايضا . لقد اكتشف الشعب في جزيرة سيلان مادة مخدرة في عصير شجرة جوز الهند فأصبح يستخرجها بطرقه الخاصة وأدمن عليها . وفي الهند يصنعون « العرقي » وهو مسكر مثل الخمر والنبيذ ، وقد يكون أشد .

دخلنا من البوابة الضخمة الى قصر ضخم يشبه قصور الشاه في شيراز بايران ، او قصور القيصر في لينينجراد ، او القصور التي لاهي هنا ولا هناك وانما

نراها فقط فى الاحلام والخيال لم اكن اتخيل أن الاباطرة المسلمين الذين حكموا الهند قد عاشوا هذه الحياه . لعلهم أرادوا أن يصنعوا الجنة فوق الارض بعد أن تأكدوا من سوء أفعالهم . وظلمهم للشعب الهندى الفقير أنهم ذاهبون الى جهنم الحمراء .

على انهم استطاعوا أن يتغلبوا على جهنم فوق الارض ، فالصيف فى الهند يلتهب فيه الجو كالنار ، وداخل هذه القصور تجد حجرات كاملة بنيت بالرخام الخالص . وهذا الرخام يظل باردا كالثلج رغم حرارة الجو . كما أنهم عرفوا تكييف الهواء ولكن بطريقة اخرى كانوا يضعون فى الجدران أنابيب تجرى فيها المياه المكشوفة التى تتبخر وترطب الجو . وداخل القصور تجد البحيرات ، والحدائق ذات الزهور والاشجار . وهناك أجنحة كاملة بالرخام المزخرف بالنقوش الذهبية والفضية . وجدران كاملة مصنوعة بالمرايا وماء الذهب وقصور للصيف وقصور للشتاء على غرار قصور القيصر فى روسيا . وقصور للحريم وقصور للرجال . وهناك قصر عجيب اسمه قصر « الهواء » ، وقد بنى خصيصا لتجلس فيه زوجات وبنات المهراجا ويتفرجن على الاستعراضات العسكرية فوق الفيله والخيول والجمال . فقد كان « الحريم » من النساء ممنوعات من الظهور امام الناس لان ذلك ينافى تقاليد الحكام المسلمين . وبنى القصر بشرط إن يدخله الهواء من جميع الجوانب حتى لا تتعرض النساء المرفهات لحرارة الجو اثناء الفرجة على فرق الفيلة والخيول والجمال . كانت المرأة منهن بحجم الفيل « رأينا بعض الملابس الداخلية والخارجية

للمهراجا ونسائه فى متاحف الملابس بالقصور » وكانوا ينقلونها من قصرها الى قصر الهواء على عربة ضخمة يجرها عدد من الرجال أو الفيلة ولهذا كان العرق يتصبب بسرعة من جسدها الضخم ولابد من تيارات مستمرة من الهواء لترطب هذا اللحم الوفير .

ورأيت جدار قصر الهواء رفيعا جدا مليئا بالنوافذ العديدة الصغيرة كالشقوق . وقال المرشد أن سمك جدار هذا القصر ليس الا ثماني بوصات فقط وذلك من أجل التهوية أيضا وارتفاعه خمسة أدوار . أما النوافذ على شكل ثقوب فكانت لتنظر منها النساء على الناس دون أن يراهن أحد .

تحول هذا القصر الآن الى مكاتب حكومية ، وامتلأت واجهته العريضة بالحوانيت التجارية الصغيرة ، وأمامه رأيت بعض القرود تلعب وتقفز على نوافذه . فى جايبور ترى القرود فى كل مكان من المدينة ، وقالوا ان هناك غابات على بعد ٦ أميال فقط لاتزال تسكنها القرود واقتربت من أحد القرود فمد يده وسلم على وقال لى المرشد انه من نوع القرود السوداء المنتشرة فى هذه المنطقة .

تحولت بعض القصور فى جايبور الى جامعات ومعاهد ، وبعضها تحول الى فنادق ، والبعض بقى كآثار يتفرج عليها السياح .

نزلنا فى جايبور فى أحد القصور التى تحولت الى فندق واسمه « رامباج » « رام » معناها الله ، باج معناها حديقة . هذا القصر عاش فيه المهراجا « مون سنج الثانى » الذى مات فى انجلترا منذ أعوام قليلة

« ٥ أعوام » وكان من أحسن اللاعبين على الحصان لكنه سقط من فوق جواده ومات .

جدران الفندق مزخرفة بالنقوش البديعة ، تعلوها اللوحات الاثرية وصور المهراجا . حديقة الفندق أشبه بحديقة سحرية كأنما يتنقل فيها الانسان الى عالم خيالى من الالوان والعطور وأحواض الزهور ، يطــل من بين الشجيرات عدد من الطاووس الملون ، يسير بخيلاء بين الزهور ، ويبسط ذيله الملون بمئات الالوان المختلفة .

حجرة نومنا كانت ايضا سحرية ، والسقف مزخرف بالنقوش الذهبية والفضية . قلت لزوجى : من الصعب أن يأتينى النوم فى مثل هذه الحجرة . وأصابنى الارق فذهبت لآخذ حماما دافئا لكنى أكتشفت أن الحمــام ايضا سحرى . يشبه حمام المهراجا الذى تفرجنا عليه أول النهار وصنابير المياه فضية والوان الجدران والسقف تصيب العين بالدوار . لم أستمتع كثيرا بالحمام الدافىء بسبب عدم التعود على مثل هذه الحياه . كان يخيل الى أن الماء الذى يخرج من الصنابير قد تحــول الى أسلاك فضية أو ذهبية تكهرب الجسم . حين خرجت من الحمام رأيت زوجى قد ارتدى « الشورت » وبدأ يجرى فى الحجرة . وضحك وهو يقول : لم أمــارس رياضة الجرى منذ ايام وهذه الحجرة أكثر اتســـاعا من الملعب وارتديت مثله « الشورت » وبدأت أجــرى أنا الاخرى .

اكتشفت بعد قليل وجود السرير ، ويــكاد يشــبه سرير المهراجا . واقتربت من السرير فى وجل ، وقال زوجى ضاحكا : من المستحيل ان يأتينى النوم فى سرير

كهذا ؟ وجلسنا بقية الليل نتفرج على معالم السرير والجدران والنقوش كأننا داخل متحف ، ولم ننم الا ونور الفجر يشقشق ، في الصباح حملنا حقيبتينا وغادرنا القصر بخطوات سريعة .

من أغرب ما رأيت في جايبور هو « البيجاما » أو المنامة التى كان يرتديها أحد المهراجات واسمه المهراجا « مدو سنج » . كانت هذه المنامة ضمن المعروضات فى متحف الملابس داخل أحد قصور جايبور . لم تدهشنى الحلى الذهبية التى زينت المنامة « كل ملابس المهراجات وزوجاتهم محلاه بالجواهر والحلى الثمينة سواء كانت ملابس خارجية أو داخلية » لكن الذى أدهشنى هو حجم المنامة وقلت للمرشد فى تعجب : ماهذا ؟؟

قال المرشد : منامة المهراجا مدوسنج .

قلت : ولكنها تتسع لعشرة أشخاص معا أو لفيل ضخم .

وقال المرشد : هذا المهراجا كان طوله سبعة أمتار وعرضه مترا ونصف . كان يأكل كثيرا ويتحرك قليلا ، وحين ينتقل من مكان الى مكان يحملوه فوق عربة .

وحين دخلت قصر المهراجا مدوسنج رأيت العربة التى كانت تحمله داخل القصر من حجرة الى حجرة ومن دور الى دور . والى جوار الدرجات العادية التى نصعد عليها من الادوار السفلى الى العليا كانت هناك مزلقانات لتجرى فوقها العربات من تحت الى فوق حاملة المهراجا « أو زوجته الضخمة أيضا » . وكان يجر هذه العربات خدم بالقصر مخصصون لهذا العمل . وقال المرشد أن المهراجا « أو زوجته » كان ينتقل من حجرة

النوم الى الحمام على عربة ، ومن حجرة الطعام الى حجرة الاجتماعات على عربة . لم يكن يسير على قدميه الا نادرا ، واذا ما سار بضع خطوات اصابه الارهاق واخذ يلهث .

قصور المهراجات فى جايبور كالقلاع الضخمة تحوطها الاسوار ، وفوق الاسوار حجرات للحراسة وداخل القصر أيضا مدينة بأكملها تعيش فيها حاشية المهراجا وخدمه وموظفيه . وهناك أيضا درجات سفلية تقود الى سجن مظلم له باب حديدى وقفل كبير . قال المرشد : هنا كان يسجن المهراجا الذين يتمردون عليه . ورأينا ايضا شيئا أشبه بالمقصلة . وهنا كانوا يقتلون — واقشعر جسمى من رائحة الهواء الراكد المنبعث من الباب الحديدى خلف القفل .

ان مثل هذا الثراء الفاحش لا يمكن أن يعيش فى أمان الا بنوع من القمع الرهيب والارهاب المستمر والتخلص من أى متمرد أولا بأول .

تركنا جناح التعذيب بسرعة وانتقلنا الى جناح الاجتماعات . انه قصر مستقل فيه المكاتب وفيه ساحة كبيرة لها منصة يجلس فوقها المهراجا ويخطب . تتوسطه بحيرة وحديقة ضخمة . وهناك صالة ضخمة تعلوها اللوحات والرسومات ، وبعض الصور . أشرت الى صورة أحد القواد وسألت المرشد : من هذا ؟

قال : انه مون سنج الاول وقد عاش فى القرن السادس عشر وكان رئيس أركان الجيش فى عهد الحاكم المغولى « أكبر » وقد زوج شقيقته للحاكم « أكبر » وكان هذا أول حدث فى التاريخ ان تتزوج امرأة هندية من رجل مسلم وقد أنجب « أكبر » منها ولدا سماه

« سليم » وهذا السليم أيضا وقع فى غرام مطربة هندية .

اخذنا المرشد الى قصور اخرى فى طرف المدينة وسألته : من كان يعيش هنا ؟
وقال : لا احد . هذه القصور بنيت ليحرق داخلها اجسام المهراجا بعد الوفاة « وهي احدى العادات الهندية المستمرة حتى اليوم » . كان هناك قصر لحرق اجسام المهراجا الرجال ، وقصر آخر لحرق اجسام زوجات المهراجا وقصر ثالث لحرق اجسام محظيات المهراجا . كأنما بعد الموت أيضا لابد من وضع فروق بين الذكور والاناث ، وبين الزوجات الشرعيات وغير الشرعيات .
ومررنا على بحيرة كبيرة يتوسطها قصر ضخم ، وقال المرشد : هذه بحيرة صناعية أنشأها المهراجا ليمارس هواية صيد السمك ، وهذا هو قصر خاص كان يأتى اليه المهراجا من أجل صيد السمك فقط ويسمى قصر الماء لان الماء يحوطه .
وسألت : ومن يسكن فى هذا القصر الآن ؟
قال المرشد الهندى : الباعوض فقط انه مهجور منذ سنوات كثيرة .
ركبنا الفيلة وصعدنا الربوة العالية التى بنى عليها قصر « عنبر » الشهير بالقصر البللورى داخل القصر راينا السقف والجدران بللورية تعكس الضوء كملايين النجوم والكواكب . لقد صنع « عنبر » داخل قصره سماء صناعية ليستمتع بضوء القمر والنجوم مع زوجاته ومحظياته دون حاجة الى مغادرة القصر .

تجولت في المدينة بعد ذلك ورأيت تلك الاعداد الهائلة من الرجال والنساء والاطفال الذين يعيشون في بيوت الخيش أو الصفيح يتكدسون فيها وعلى الارصفة كالذباب أو كأكوام القمامة كنت أتساءل كيف يمكن لحاكم من الحكام مهما تبلد عقله واحساسه كيف يمكنه أن يعيش في كل تلك القصور ، وأن ينفق من أموال هؤلاء الفقراء هذا الانفاق الجنوني . كيف يفعل هذا دون أن يرتعش له جفن ؟ ولم يكن خافيا على أن المهراجا لم يكن الحاكم الوحيد الذي فعل هذا كنت اعلم أن الحكام في كل زمان ومكان يفعلون هذا ، وجميعهم أيضا لهم قصور وساحات كبيرة ومنصة عالية يقفون عليها ويخطبون ويتحدثون عن العدالة والمساواة والحق .

مدينة « احماد اباد » في ولاية جوجراد على الساحل الغربي للهند لا توجد في خريطة الهند السياحية . اذا كنت سائحا وذاهبا الى غرب الهند يقولون لك اذهب الى أودايبور وكاجيورا وبومباي وماندوسجوا وغيرها . لا أحد يذكر لك احماد اباد .

احماد اباد ليس بها قصور مهراجا ولا قلاع حمراء ، ولا قبور من الرخام ولا حدائق شهيرة ولا بحيرات ساحرة ولا أي شيء من تلك المناظر الخلابة . هي مدينة فقيرة متربة . هواؤها الساخن « رغم أنني زرتها في فبراير » محمل بالرمل الذي يتطاير من قاع النهر الضخم الذي يجف تماما في فصل الشتاء ، ويصبح منخفضا رمليا واسعا ، تنتشر فوقه أكواخ الخيش والصفيح ، يعيش فيها العمال الموسميون الذين يشتغلون هذا الموسم في

نقل الرمال من قاع النهر الى لوريات « تاتا » الضخمة .

لكن أحماداباد هى مهد رسالة غاندى ، بدأ منهـا كفاحه مع الفقراء وعاش فقيرا ومات فقيرا . دخلت بيته البسيط فى احماداباد والذى عاش فيه وبدأ منه مسيرته الطويلة ضد الفقر وضد الظلم . لم أر فى بيت غاندى الا حاجياته الشخصية حيث تركت فى البيت « الذى أصبح متحفا » كما تركها غاندى قبــل أن يقتل . رأيت المنضدة على شكل طبلية التى كان يجلس أمامها على الارض ويكتب أو يقرأ . الى جــوارها نظارته ، وكتابه لازال مفتوحا ، وقلمه ، وعصـاه ، وقبقاب خشب ، وصندل ، وصحن وملعقة ، وتمثال صغير جدا لثلاث قطط معا وهذا هو كل ما كان يملك غاندى فى حياته وكل ما تركه من ممتلكات بعــد وفاته .

وقفت لحظة اتأمل هذه الممتلكات الضئيلة لواحد من أكبر زعماء التاريخ ، وايقنت أن غاندى كان صادقا فى رسالته وكان يستحق الزعامة ويستحق أن يكون قائدا لشعب الهند الكبير اخذ عقلى يقارن بين ممتلكات غاندى وبين ممتلكات غيره من الزعماء فى البلاد الاخرى ، الذين يدعون فى حياتهم أنهم يناضلون من أجل الحق والمساواه والعدل فاذا بهم بعد الوفاة وقد امتلــكوا الآلاف والملايين فى البنوك داخل البلد وخارجها وامتلك ابناؤهم وبناتهم وزوجاتهم بالمثل أو مايزيد .

قلت لنفسى أن الطريقة الوحيدة الممكنة للحكم على صدق نضال زعيم أو حاكم هو أن نعرف أملاكه وأمواله بعد وفاته . وأن نعرضها على الناس كما نعرض أملاك

غاندي . وكنت اعرف بالطبع ان هذا امر مستحيل لانها ستكون فضيحة مابعدها فضيحة .

اكتشفت وجود شيء آخر ضمن ممتلكات غاندي . انه « النول » الصغير الذى كان يغزل عليه ملابسه ، وكان يصحبه معه في سفره خارج الهند . على الجدار صورة لغاندي وهو يغزل فوق باخرة كبيرة تحمله الى انجلترا . لم يكن غاندى يكترث بتلك العيون الزرقاء الاوربية التي تنظر اليه في دهشة واستعلاء .

كان يسافر الى بلد الانجليز بلباسه الابيض الذى غزله بيده وشاله الذى صنعه على « النول » في بيته ، والصندل المفتوح في قدميه . بهذا المنظر وعصاه في يده كان يجلس غاندى وسط الانجليز ببدلهم الصوفية واحذيتهم الجلدية . وربطات العنق الثمينة ، يجلس معهم دون أن يكترث بمظاهرهم البراقة ، فهو يعلم ان تحت هذه القشرة قطاع طرق ولصوص يستنزفون خيرات بلده . وكان الانجليز يتفاوضون معه كما يفعلون مع اى زعيم في اية مستعمرة لهم ولم يكن من الممكن لاية مفاوضات أن تنجح ، لان غاندى لا يهتز لمال قارون ولا يطربه مجد ولا يخشى الموت ولا يريد من حياته سوى أن يحقق رسالته .

لم تكن رسالته في اول الامر سوى أن يحارب الظلم والفقر بالحب والتفانى في العمل . كان وحده في البداية ثم انضم اليه فقراء الهنود الذين ثاروا ضد ضريبة الملح واسمها « ساتايا جراها » والتي أصبحت من بعد رمزا لكل حركة ثورية . لم يكن الانجليز يكتفون بسلب اموال الهند بل كانوا أيضا يحملون الشعب الهندى ضرائب باهظة على كل شيء واى شيء حتى الملح .

واصبح على ملايين الفقراء ان يدفعوا ضريبة على الملح الذى كان يشكل طعامهم الرئيسي بل الوحيد . وحينما عجز هؤلاء الفقراء عن دفع ضريبة الملح واصبحوا مهددين بالموت جوعا فوق الرصيف تجمعوا على شكل حركة وسميت حركة ضريبة الملح .

كان غاندي صادقا فى رسالته وكان مناضلا حقيقيا ، يسعى ضد الظلم ، لكنه مات مقتولا . وقال لى أحد شباب الهنود الذين تحدثت معه وأنا أتجول فى بيت غاندي : كان غاندي صادقا لكن الصدق وحده لا ينفع فى عالم تقوم فيه السيادة على الغش والكذب والخداع وكان مبدأ غاندى الحب ولكن سلاح الحب كسلاح الصدق لا يصلح ضد خصوم يحملون أسلحة مسممة كان غاندى انسانا عظيما لكنه كان سياسيا فاشلا ، وانتهى به الامر الى أن وافق على تقسيم الهند ، هذا القرار الخاطىء والذى كان سببا فى مقتله .

سالني هذا الشاب : هل زرت اشرم غاندى ؟

قلت : ماهو أشرم غاندى ؟

قال : هذه المبانى الصغيرة المواجهة لبيت غاندى .

قلت : ومن يعيش فيها ؟

قال : يعيش فيها حوالى الف شخص من الرجال والنساء والاطفال . يعيشون على شكل « كوميون » يتقاسمون كل شىء ويطبقون جميع مبادىء غاندى فى حياتهم داخل الاشرم . انهم يعملون ويتعاونون معا ويقرءون ويزهدون فى الحياة ولا يمارسون الجنس .

قلت : ومن اين جاءت الاطفال داخل الاشرم ؟

وقال الشاب : جاءت قبل التحاق الاب أو الام بالاشرم . لكن بعد الانضمام الى الاشرم فليس هناك

اى اتصال جسدى بين الرجال والنساء حتى وان كانوا ازواجا قبل انضمامهم الى الاشرم انهم مجموعة من الناس اختاروا أن يعيشوا معا هذه الحياة الروحية والفكرية واستطاعوا ان يتغلبوا على شهوات الجسد .

قلت : وما الهدف من هذا الكوميون ؟

قال الشاب : أن يعيش الناس كما عاش غاندي وان تقوى فيهم القدرات الروحية والفكرية .

وسألت الشاب : هل أنت عضو فى هذا الاشرم ؟

قال : لا .

قلت : لماذا ؟

قال : انا لا أومن ببعض مبادىء غاندى ، واعتقد ان بعض أفكاره تعزل الانسان عن الدنيا وتفصل بين الجسد والروح وهذه فلسفة لا تساعد الإنسان على الكفاح ضد الظلم . لابد للمكافح أن يكون متصلا بالحياة لا منعزلا عنها . ولابد للمكافح أن يعيش بجسده وعقله لان الانسان وحدة لا تتجزأ . اننى احترم مقدرة غاندى وتلاميذه من اعضاء هذا الاشرم على كفاح شهوات الجسد الجنسية ولكنى أفضل أن يتجه كفاحهم الى العالم الخارجى حيث يستغل الملايين ويموتون جوعا .

وقلت للشاب : أنا أوافقك على رايك .

فى تلك الليلة دعيت الى منزل أحد فلاسفة احماداباد ممن يؤمنون « بالجيتا » وفلسفة الزهد فى الحياة والتصوف واليوجا . فى حديقة بيته متحف من تماثيل آلهة الهند بجميع أنواعها ، صنعها له احد أصدقائه النحاتين . بعض التماثيل جمعها بنفسه من أطراف الهند أو المعابد المهجورة . أكلنا الطعام الهندى الحراق

فى الحديقة ومن حولنا الآلهة والالهات ، وبدأ النقـاش بين عدد من المفكرين والادباء ، والشاعرات . كنت صامتة استمع وأتأمل ملامح الآلهة الحجرية . وكانت تجلس الى جوارى امرأة هندية صغيرة الجسم صافية العينين، على وجهها ابتسامة هادئة .

وسألتها : هل أنت شاعرة ايضا ؟

قالت : لا . أنا مدرسة روحية .

قلت : ماذا ؟

قالت : مدرسة روحية .

سألت : يعنى تدرسين علم الروح ؟

قالت : نعم .

سألتها : وأين تدرسين على الروح ؟ فى المدارس ؟ ضحكت وقالت : لا . أنا مدرسة روحية فى أشرم فى جنوب الهند وقد جئت فى أجازة لازور أسرتى فى احماداباد .

سألتها : هل فى جنوب الهند أشرم على غرار اشرم غاندي هنا ؟

قالت : نعم . فى كل مكان فى الهند يوجد هـذه الكوميونات حيث يعيش الناس معا حياة روحية .

قلت : وماذا تدرسين فى الاشرم ؟

قالت : أعلم أعضاء الاشرم من الرجال والنساء كيف يفكرون ، كيف يتأملون بعمق ، كيف يخترقون حجـاب الجهل فى عقولهم ويصلون الى الرؤية الواضحة والمعرفة وأعلمهم أيضا كيف يقاومون شهوات الجسد .

سألتها : هل فى كل أشرم مدرسة روحية مثلك ؟

قالت : نعم .

قلت : هل من الضروري أن تكون المدرسة الروحية امرأة ؟

قالت : لا . أحيانا تكون امرأة واحيانا يكون رجل . المهم القدرة على تدريس هذه المادة الصعبة . لان الدراسة ليست نظرية فحسب ولكنها عملية أيضا . هناك تمرينات اليوجا بجميع أنواعها ، وهناك القدرة على التركيز والتأمل لساعات طويلة ، وهناك القدرة على الزهد والتغلب على رغبات الجسد ، وهناك القدرة على صفاء الذهن والوصول الى الدرجات العليا من الوعي .

جلست استمع اليها طويلا ، أتأمل كلامها ، واتأمل ملامحها . ذكرتني بقراءتي « للجيتا » لكنى كنت كلما نظرت في أعماق عينيها شعرت « باحساس الطبيبة النفسية » أن في قاع هاتين العينين مأساة قديمة دفنت منذ سنوات واصبحت ذكرى بل ضاعت أيضا من الذكرى .

من يتأمل معتقدات الناس في بلاد العالم المختلفة يدرك أنها متشابهة وتكاد تكون واحدة من حيث معناها ودوافعها وأهدافها . بعض الناس الذين يؤمنون باله واحد يظنون أن الذين يؤمنون بعدد من الآلهة ليسوا بشرا مثلهم ، أو أنهم بشر من نوع آخر ، أو أنهم على الاقل جاهلون ومختلفون . لكن الذي يزور الهند ويدخل معابدها المختلفة ويتعرف على أديانها المتعددة يدرك أن الفروق بين الشر قليلة جدا وانها فروق سطحية فحسب ، أو فروق في الحركات الخارجية وطريقة العبادة أو طريقة الطقوس ويبقى جوهر الانسان واحدا .

في مدينة بومباي دخلت في يوم واحد خمسة معابد مختلفة لاديان مختلفة . دخلت معبدا « هندوكيا » ثم معبدا « جينيا »ثم معبدا « بوذيا » ثم كنيسة ثم مسجد ودهشت حين وجدت تشابها كبيرا بين الخمسة معابد في المعمار من الداخل والخارج من حيث وجود القبة أو القباب ، وعمدان ، ومكان مخصص للعبادة ، ورجال داخل المعبد لهم زي معين ، ولهم حركات معينة ، وطريقة معينة ، في التعامل مع الناس ، أو تناول الهبات منهم . كما أن الناس الذين يزورون المعبد « يصلون للاله أو للالهة تبدو حركاتهم متشابهة بالرغم من أن بعضهم يصلي وهو واقف ، وبعضهم يصلي وهو راكع على ركبتيه ، والبعض يجثو منكفئا على وجهه . وجميعهم يدفعون شيئا للرجال القائمين على هذا المعبد أو الدين ، شيئا من مال أو طعام يعطى مباشرة لرجل الدين أو يعطى للفقراء الذين يحوطون المعبد في أكواخ الخيش او يرقدون على الارض من حوله أو فوق الدرجات المقدسة التي تصعد اليه والتي يجب ان نخلع احذيتنا حين ندخله .

كنت قد قرات شيئا عن تاريخ الاديان في حياة الانسان : كيف بدات ولماذا وكيف تطورت من دين الى دين . لكن الذي يقرأ ليس كالذي يرى . وقد وجدت ان من ميزات الهند انها تحتوى في جوفها حتى اليوم على تاريخ الاديان في مختلف الازمنة منذ أن عبد الانسان الشمس والافلاك والنار والهواء والحيوانات الى ان رمز الى القوى المجهولة من حوله برموز مختلفة ، منها آلهة على شكل تماثيل حجرية يراها ويلمسها ، ومنها آلهة غير منظورة وغير مرئية الى ان رمز الى كل تلك القوى

بآلة واحد غير منظور وغير مرئى .

كنت قد قرأت عن حاجة الانسان فى كل الازمنة الى شىء يؤمن به . شىء يفسر له الظواهر المجهولة من حوله شىء يعزو اليه القدرة على فعل أشياء يعجز عنها الانسان لكن الذى يتأمل منظر الناس وهم يتعبدون داخل المعابد يدرك أن هذه الحاجة تتغير بتغير طبقة الانسان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . من أهم ما لفت نظرى أن معظم الذين يذهبون الى المعابد من الفقراء الذين لم ينالوا شيئا من التعليم . وقد لاحظت ان هؤلاء حين يصلون يغمضون أعينهم تماما وتتخذ ملامحهم وأجسادهم وضع الاستسلام الكامل ونوع من الرهبة والخوف والانكسار بل وشىء من العزلة أيضا . وحين يقدمون هباتهم لرجال الدين فهم يطلبون شيئا دائما .. أما أن يشفى الاله مريضهم ، أو يرفق بهم ويمنع عنهم كارثة معينة ، أو يرزقهم بولد أو ينصر أحدهم على مكايد أعدائه .

وبعض هؤلاء يقضون الساعات فى مثل هذه الصلوات، أما المتعلمون من الناس فهم اقلية قليلة داخل المعبد . وهم دائما على عجل . يصلون بسرعة ، وحركاتهم لاتنم عن الانكسار والمذلة بقدر ما تنم عن الرغبة فى انهاء الصلاة بأسرع مايمكن والذهاب الى أعمال أخرى هامة . وهم لا يغمضون أعينهم تماما أثناء الصلاة . بل تظل عين الواحد منهم مفتوحة او نصف مفتوحة . وهم لا يدفعون شيئا للفقراء حول المعبد ، ولا يقدمون الهبات الا ما كان منها واجبا دينيا مفروضا . وهم لا يطلبون من الاله علاج مريض لانهم عرفوا الاطباء والادوية ، لكنهم يطلبون من الاله مطالب أخرى مختلفة باختلاف مطالبهم

في الحياة وباختلاف قدرتهم أو عجزهم عن تحقيق هذه المطالب .

وفي الهند أيضا قطاع من الناس لا يذهبون الى المعابد انهم يصلون فى منازلهم ويقولون أن الاله يوجد داخل المعبد وخارجه وليس له مكان محدد . وبعض الناس فى الهند لا يصلون ويقولون أن العبادة هى الحياة وأن الله هو الانسان الذى يعمل لخير الناس والذى وصل الى درجة عالية من الوعى والحكمة وأصبح سيد نفسه لا يخاف نفسه ولا يخاف من القوى الخارجية لانه أخضعها لارادته القوية وكشف عن أسبابها بالعقل والمعرفة . وهذا الاتجاه الاخير ينتشر فى الدين البوذى أكثر من الدين الهندوكى . لان بوذا أعلن بثورته ضد الدين الهندوكى وضد الطبقات وضد التفرقة بين الناس . وفى الدين البوذى ليس هناك آلهة . وبوذا ليس الا انسانا وصل الى تلك الدرجة العليا من الوعى والمعرفة . لكنى رأيت الناس داخل المعبد البوذى يركعون لتمثال بوذا وينبطحون أرضا أمامه داعين أن يحقق لهم مطلبا من المطالب كغيرهم فى المعابد الاخرى . وسألت أحد المفكرين البوذيين عن ذلك فقال أن هؤلاء الناس لم يقرءوا الدين البوذى وهم جاهلون بتعاليم بوذا ، وهم يقلدون غيرهم من الناس بغير وعى .

ولكن أغلبية البشر وبالذات فى الشرق حيث تنتشر الاديان لا يقرءون لانهم أميون . ومعنى ذلك أن أغلبية البشر لا يعرفون شيئا عن فلسفة دينهم الحقيقى وعن التعاليم الاصلية فى ذلك الدين . ولهذا كم يستغل الدين في تلك البلاد ويصبح سلاحا خطيرا فى يد رجال الدين أو رجال الحكم أو رجال الاستعمار .

ان معرفة حقيقة دين من الاديان تحتاج الى أن يقرا الانسان هذا الدين ويفهمه ليؤمن به ايمانا صادقا . ولكن أن يقلد الانسان غيره تقليدا أعمى فليس هذا من الدين فى شيء .

وقال لى هذا المفكر البوذى : قبل أن اقرأ ما قاله بوذا كنت اذهب الى المعبد وأركع لبوذا مثل هؤلاء الناس . لكنى بعد أن قرأت وفهمت لم أعد أعبد أحدا .

سألته : ولكنك تؤمن ببوذا ؟

قال : لا . أنا أؤمن بنفسي ، وأؤمن بأى انسان يكتشف نفسه وقوته الداخلية ، ويحاول بهذه القوة الداخلية أن يغير العالم الخارجى الى الافضل والاحسن لنفسه ولغيره من البشر .

هذه هى فلسفة بوذا وهذه هى مبادىء الدين البوذى ، لكن القليلين هم الذين يقرءون وقليل القليل من يقرا ويفهم .

فى الهند أيضا مجموعات أخرى من الناس لهم أديان أخرى . منهم « السيخ » وهم يجمعون بين بعض مبادىء الدين الهندوكى وبين مبادىء الدين الاسلامى . انهم لا يعبدون التماثيل الحجرية ولكنهم يعبدون اله واحد غير منظور . لكنهم لا يقصون شعورهم أو لحيتهم طوال حياتهم . ترى الرجل منهم قد لف شعره الطويل تحت عمامة كبيرة ولف شعر لحيته بطريقة معينة .

وهناك مجموعة « الفارسيين » وهم الذين يعبدون النار ، ويعلقون جثث موتاهم فى شجرة لتأكلها طيور معينة . أسماؤها « قالتشرز » .

فى بومباى أخذنا أحد هؤلاء الفارسيين لنرى كيف

تأكل الطيور الجثث . لم نر الا الطيور الجائعة المفزعة تهبط فوق « برج الصمت » . انه برج عال بنى خصيصا في وسط المدينة لتوضع فوق قمته جثث الموتى وتترك للطيور لتأكلها . داخل البرج بئر عميق تسقط فيه العظام بعد أن تتركها الطيور ، وتذوب هذه العظام فى حامض معين داخل البئر لتتلاشى تماما .

دعانا هذا الفارس وزوجته الى العشاء وجلسنا نأكل العدس باللحم « طبق خاص فى الهند يقدم يوم الاربعاء فقط لان الارز ممنوع في ذلك اليوم » وقال الزوج مداعبا زوجته « الفارسية أيضا » : « سوف تأكلك القالتشرز أكلا يا حبيبتى » . وضحكت الزوجة وهى تقول : هذه الطيور تأكل العينين اولا ثم تأكل بقية الجسم . انها تحب العينين أكثر من أى شىء . وكاد الاكل أن يقف فى حلقى وتوقفت قليلا وسألت هذه الزوجة : ان هذه عادة بشعة .

وقالت الزوجة : بعد الموت لا نحس شيئا . الهندوكيون يحرقون جثثهم والحرق لا يختلف كثيرا عما نفعل نحن الفارسيين . بل اننا أكثر انسانية لاننا نطعم هذه الطيور الجائعة بدلا من حرق الجثث بغير فائدة . وهذه هى الحكمة من هذه العادة .

وقال الزوج : لكنها فعلا عادة بشعة . وبعض الناس الآن يثورون عليها ويطالبون بتغييرها . وقالت الزوجة : بعضهم يطلبون فى وصيتهم الا تأكلهم الطيور ويحرقون أو يدفنون لكن هؤلاء يتعرضون لغضب الآلهة وغضب رجال الدين الفارسى ، الذين يرفضون الصلاة على اجسادهم وتدفن بغير بركة رجال الدين .

وضحك الزوج قائلا : رجال الدين يحافظون دائما

على اية عادات دينية من اجل أن يعيشوا وتكون لهم وظيفة واجر . انا شخصيا افضل أن تدفن جثتى دون بركة هؤلاء الرجال .

فى بلدة صغيرة شمال بومباى واسمها « بارودا » ركبنا العربة « الجيب » لنزور بعض القبائل الهندية التى تعمل فى ضرب الطوب أو تحويل الرمال من قاع الانهر الجافة الى اللوريات . رافقنا فى الرحلة شاب هندى اسمه سامانتا ، عمره ٣٣ عاما ودرس الكيمياء فى بولنده ثم عاد الى الهند واشتغل فى أحد المصانع الكيماوية فى بارودا .

سارت بنا العربة « الجيب » ساعات طويلة فوق شوارع رملية أو صخرية مليئة بالحفر والمطبات . كان الحر شديدا وكدت أطلب العودة من حيث أتيت لولا أن حديثا بدأ بين الشاب الهندى وبينى انسانى طول الطريق ووعورته .

لاحظت أن الشاب يرتدى حول عنقه شيئا أشبه « بالدوبارة » فسألته عنها فقال : هذه « الدوبارة » يلبسها الرجل قبل الزواج ليصبح مقدسا . قبل أن يلبس هذه الدوبارة يمكنه أن يفعل ما يشاء ويتصل بأية امرأة ولكن بعد أن يلبسها يصبح مقدسا ولا يقرب أية امرأة الا زوجته .. وهو لا يخلع هذه الدوبارة عن عنقه طوال حياته .

وسألته : وهل تلبس النساء مثل هذه الدوبارة ايضا ؟ .

وقال الشاب : لا . النساء لا يصبحن قديسات ابدا ؟ .

وسألته : لماذا ؟
قال : لانهن نساء .
قلت : وماهي الميزات التي يحصل عليها الرجل ذو الدوبارة .
قال : انه يصبح مقدسا .
سألت : ما معنى ذلك . هل في ذلك ميزة معينة ؟
قال : نعم . الرجل المقدس له الحق في أن ينادى ارواح الموتى . انا استطيع الآن ان انادى ارواح أجدادى لابى وأجدادى لامى . لكن الشخص الواحد لا يستطيع ان ينادى لاكثر من الجد السابع لكل من الاب والام .
قلت : وماذا تفعل بعد أن تنادى أرواح اجدادك ؟
قال : أكلمهم ويكلموننى ويعرفوننى باشياء كثيرة في حياتى .
قلت : المراة أذن لا تنادى أرواح اجدادها .
قال بحماس : لا . ان زوجها يفعل ذلك نيابة عنها .
كتمت الضحكة وقلت : لو كنت زوجة هنا لناديت بنفسى ارواح اجدادى .
وقال الشاب : الارواح لا ترد على النساء .
دهشت من منطق شاب مثل هذا درس وتعلم ، لكنى لم ادهش كثيرا ، فقد رايت كثيرا من المتعلمين يؤمنون بعقائد غريبة .
وسألت الشاب : الم تسأل نفسك يوما لماذا ترد الارواح على الرجال ولا ترد على النساء ؟
قلت : لا . هذه هي طبيعة الحياة .
قلت : من قال لك انها طبيعة الحياة .
قال : اهلى . ابى وأمى وكل الناس من حولى .
قلت : ولكن هل ترث معتقدات اهلك بغير أن تعيد

تفكيرك فيها على ضوء دراساتك الجديدة ؟

قال : أنا درست الكيمياء ، وليس هناك علاقة بين الكيمياء وبين الدين او العقائد . اليس كذلك ؟

قلت : توجد علاقة ، ولابد أن تكون هناك علاقة بين اى شيء ندرسه وبين مانرث من أفكار وعقائد . ان هذا الفصل بين ما نسميه العلم والعقيدة يوقعنا في الكثير من التناقض . والآن هل انت متزوج ؟

قال : نعم .

سألته : وهل انت الذى اخترت زوجتك ؟

قال : لا . اننا هنا لا نختار زوجاتنا . ان أهلنا هم الذين يزوجوننا .

قلت : وهل تعملون حفلاً للزواج ؟

قال : نعم وقد عملوا حفل زواجى الساعة الرابعة صباحا .

قلت فى دهشة : الرابعة صباحا ؟ لماذا ؟

قال : موعد حفل الزواج يتحدد حسب نجم العريس وقد حدد نجمى الساعة الرابعة صباحا .

وهكذا كلما كنت اتحدث مع هذا الشاب الهندى أكتشف عادة هندية غريبة . وقد حكى حكايات غريبة عن مسألة تناسخ الارواح التى يؤمن بها ايمانا عميقا مثل غيره من الهنود الذين يدينون بالدين الهندوكى . وفكرة التناسخ هى أن روح الانسان بعد الوفاة تتجسد فى جسد آخر قد يكون انسانا وقد يكون حيوانا . وقد ظل هذا الشاب يحكى لى الحكايات الغريبة حتى وصلنا الى قرية « فالود » حيث التقيت باحدى القبائل الهندية .

ذكرتنى هذه القبيلة بقراءاتى فى التاريخ القديم

للانسان منذ العصر الحجرى . رأيت تحت شجرة قطعة طوب يرقصون حولها ، وعرفت أن قطعة الطـوب هذه هي الاله . يرتدون قطعة قماش بيضاء حول نصــفهم الاسفل ويحملون الحراب والاسهم وأحيانا البنادق . انهم لا يتبعون أي نظام ولا اي حاكم . ولا يؤمنون بالغد ولا الاستقرار ويقدسون شيئا اسمه الحرية . كل واحد منهم يعتقد أنه الملك وليس لاحد سلطان عليه . اذا وثقوا فيك اكرموك واعطوك كل ما عندهم ، اذا لم يثقــوا فالويل لك .

كان من حسن حظى أنهم حين نظروا فى وجهى وثقوا في ورأيتهم يقدمون لى طعامهم « طعاما نباتيا مــن الخضروات لانهم لا يأكلون اللحم » وأكلت معهم وشربت الماء من بئر يشربون منه . وغمس أحدهم أصبعه فى سائل أحمر مقدس ورسم فوق جبهتى النقطة الحمراء وهمس الشاب فى أذنى حتى لا يسمعه أحد من القبيلة : لو راى المسلمون هذه النقطة الحمراء فوق جبهتــك لغضبوا جدا . انها ضد تقاليد المسلمين هنا .

افراد هذه القبيلة من الرجال والنساء يعملون فى قطع الاشجار . بيوتهم من طين وسقفها من فروع الشجر . يرتدون فوق رءوسهم عمامة ضخمة ليست الا حبــلا طويلا ملفوفا فوق الرأس عدة مرات ، يفكه الواحد منهم امام البئر ليربط فيه الجردل ويدليه فى البئر . تقاليدهم تختلف عن تقاليد الناس فى المدن . الرجل والمرأة هنا متساويان فى الحرية الجنسية قبل الزواج . والبنــت تشجع الولد لعمل علاقات قبل الزواج ، ولكن بعــد الزواج تتزوج المرأة رجلا واحدا ويتزوج الرجــل امرأة واحدة . والرجال والنساء يتزينون بحلقات الحــديد

فوق جباههم وأنوفهم وآذانهم وأرجلهم . لهم دقة مميزة على الطبول تنقلنى الى عالم آخر ، كأنما مت وعـاد التاريخ وبعثت فى أحد العصور البدائية . رغم فقرهم وجهلهم أحسست الشهامة والصـدق والطبيعة فى وجوههم المباشرة وعيونهم الصريحة . شعرت بينهـم براحة رغم أننى كنت أجلس فوق قطعة من الطـوب واشرب الماء من بئر . انها الراحة التى نشعر بها مع هؤلاء الناس النادرين الذين لا يزيفون ولا يكذبون .

عربة الجيب تعود بنا الى المدينة . الشمس تهبط فى الغرب من وراء الاشجار . على جانبى الطريق ارى اشجار الموز وحقول المسطردة ذات الزهور الصفراء ، وحقول قصب السكر ، والقمح وزيت الخروع . فى السماء تحلق الغربان والحمام والعصافير . بين الاشجار الكثيفة الملح السحالى والثعالب الصغيرة والقرود بعضها يجرى ويلعب والبعض جالس فوق الشجر يرمق الطريق بعيون شاردة متأملة كعيون البشر .

الام القـردة من حولها أطفالها يلعبون وهى تسـير بخطوات بطيئة كالرجل العجوز الوقور . القردة الصغار تضرب بعضها البعض وتلعب معا تماما كأطفالنـا . نظرت الى القردة الام ـ واكتشفت أنهـا تراقبنى . حركاتها انسانية وصوتها ايضا انسانيا . نشـأ بينى وبينها ترابط واوقفت العربة . أردت أن أكلمهـا وهى جالسة تضـع مرفقها فوق ركبتها . عيناها انسانيتان لولا تلك النظرة المفاجئة الوحشية والمجنونة كأنما لم تعد تثق فى وتريد الانقضاض على بسرعة . حينما رأت اننى لن اسبب لها اذى واننى أقترب منها لمجرد الفرجة

استرخى جسدها وتلاشت النظرة المتحفزة . ثم اعطتنى ظهرها وسارت بخطواتها البطيئة نحو أطفالها .

ادركت أن الحيوان كالانسان يحتاج الى أن يثق فيك ويطمئن اليك والا فالويل لك .

تناولنا عشاءنا مع بعض الهنود المشرفين على المصنع الكيماوى واحد الخبراء الاقتصاديين الذى يعمل فى الهند واسمه « فيشمان » وهو أمريكى الجنسية .

كنت صامتة استمع الى الحوار الدائر بين فيشمان واحد الرجال الهنود . بدأت المناقشة بينهما حول قضية ووترجيت ونيكسون ومشكلة التجسس ،وسمعت فيشمان يقول للهندى : انا لا افهم فى السياسة ولا احاول أن افهمها .انا رجل متخصص فى الاقتصاد فقط .

وقال الهندى : هل يمكن ان تفصل بين السياسة والاقتصاد .؟

قال فيشمان : لكل علم المتخصصون فيه .

قال الهندى : ان الذى يحرك السياسة هو الاقتصاد ولا يمكن فصل هذا عن ذلك ؟

قال فيشمان : ولكنى لا استطيع أن أقرأ عن قضية ووترجيت ومشاكل التجسس ثم أقرأ فى الاقتصاد . ان ساعات اليوم لا تكفى الا لشىء واحد . ومن المهم ان اتقن الفرع الذى تخصصت فيه بدلا من أن أشتت جهدى فى فروع كثيرة ، وعندنا مثل انجليزى يقول ــ الذى يفهم فى كل شىء لا يجيد شيئا .

ورد الهندى قائلا : ولهذا السبب أصبح السياسيون يسيطرون على العالم . انهم من النوع الذى يفهم فى

كل شيء ولا يجيد شيئا ولهذا هم يحكمون ويسيطرون على الاقتصاد ويوجهونه كما يشاءون وحسب مصالح طبقتهم الصغيرة المحدودة وضد مصالح الاغلبية من الناس .

وقال فيشمان : أنا اكره السياسيين واتفادى الحديث في السياسة .

وقال الهندى بعند واصرار الهنود : ولكنك لا تستطيع ان تتفاداهم طالما انت تعمل في مجال الاقتصاد . لانك في الواقع تنفذ سياستهم في مجال الاقتصاد .

وقال فيشمان : أنا كالطبيب الذى يعالج المريض سواء كان صديقا أو عدوا .

قال الهندى : لا . هناك فارق بين الطب والاقتصاد . الاقتصاد جزء لا ينفصل عن السياسة بل هو الركيزة التى تقف عليها السياسة . أما الطب فهو علم منفصل عن السياسة اليس كذلك يا دكتورة ؟

ووجه الرجل الهندى سؤاله الى فقلت : بل ان الطب ايضا لا ينفصل عن السياسة . هناك طب يعالج المريض دون أن يستغله وهناك طب يعالج المريض ويستغله . لا يمكن فصل اى شيء عن السياسة ، حتى الحب .

وضحك فيشمان محولا المناقشة الى نوع من المرح والفكاهة لكنى قلت بجدية وحزم : نعم هناك حب ينشأ على اساس من التساوى والتبادل وهناك حب يقوم على عدم التساوى والاستغلال .

ولم يحاول فيشمان أن يقتنع ، وذكرنى بالشاب الهندى الذى درس الكيمياء فى بولنده والذى يفصل بين دراسته العلمية وبين حياته اليومية من حيث الزواج والدوبارة المقدسة التى يعلقها فى عنقه وايمانه بأن أرواح

الموتى تخاطب الذكور وترفض مخاطبة النساء .
ان الانسان المثقف فى نظرى هو الذى استطاع أن يربط بين العلوم المختلفة ، وينظر الى الحياة والانسان نظرة كلية شاملة ، والانسان الجاهل فى رأيى هو الذى يقسم عقله الى حجرات منفصلة ، يضع فى حجرة علم الكيمياء أو الاقتصاد أو الطب ، ويضع فى حجرة اخرى الدين او المعتقدات والافكار الموروثة ، ويضع فى حجرة أخرى الحب او الجنس ، ويضع فى حجرة آخرى السياسة .. وهكذا يفقد نظرته الشاملة للحياة والانسان ويعجز عن فهم مظاهر الاستغلال المحيطة به . انه قد يكون أخصائيا ماهرا فى عمله . لكنه يصبح كالثور الذى يجر الساقية دون أن يعرف الى أين يذهب ماء الساقية .. أيذهب الى حقول الفلاحين الكادحين الذين يحتاجون الى الماء لزراعة المحاصيل أم يذهب الى حوض السباحة فى بيت الحاكم لتسبح فيه كل صباح زوجته السمينة العاطلة . وحينما تسأل الثور : هل تعرف الى اين يذهب الماء الذى تخرجه من الساقية ؟
يرد الثور قائلا : لا أعرف . ليس هذا تخصصى . ان تخصصى ألوحيد هو أن اجر الساقية .
وتساعد كثير من الاديان « وبالذات الدين الهندوكى» على هذا الفصل بين العمل ونتيجة العمل .
حين تدخل المعابد الهندوكية تقرأ هذه اللوحة معلقة على الجدران : « اعمل بكل طاقتك ولا تفكر فى نتيجة العمل » . وقد اخذت هذه العبارة من كتاب الهندوكيين المقدس وهو « الجيتا » . وكان غاندى أيضا يتبع هذه الفلسفة ويفصل بين العمل ونتيجته ، ولهذا فشلت حركته سياسيا وانتهت بتقسيم الهند .

لو أن كل انسان عرف لماذا يعمل والى اين تذهب نتيجة عمله لما استطاع احد أن يستغل جهد احد « أو علم أحد » ولانقرض الاستعمار والاستغلال من الهند ومن البلاد الاخرى .

***

عرفت أن العاملة أو العامل الهندى في مزارع الشاى يعمل تسع ساعات فى اليوم نظير « ٤ أو ٥ » روبيات ، وينتج فى اليوم الواحد كمية من الشاى تعادل « خمسين » روبية أي عشرة اضعاف الاجر الذى يحصل عليه . معنى ذلك انه ينتج فى الساعة الواحدة ما يعادل اجره ويعمل بقية الساعات الاخرى الثمانية بغير اجر . بعبارة اخرى انه ينتج فى الساعة الواحدة كمية من الشاى ثمنها ٥ روبيات تقريبا اى تعادل اجره اليومى كله لانه يتقاضى ٥ روبيات فقط عن عمل متواصل لمدة ٩ ساعات . الى أين يذهب جهد هذه العاملة أو هذا العامل ! انه يذهب الى أصحاب الشركات التى تصنع الشاى وتوزعه ، اى أنه يذهب الى جيوب حفنة من الاثرياء يستغلون جهد ملايين العمال والعاملات .

ان الربح الضخم الذى يحصل عليه هؤلاء والذى ينفقوه ببذخ على كماليات زوجاتهم — وأولادهم يتبخر فى الهواء لو أن العاملة او العامل الهندى فكر لحظة في نتيجة عمله اليومى طوال تسع ساعات متصلة تحت قرص الشمس الملتهب . ولكنهم لا يفكرون وأسباب ذلك :

١ — استنفاذ جهدهم طوال اليوم فى العمل فلايجدون متسعا من الوقت والجهد للتفكير .

٢ — عدم المامهم بالقراءة والكتابة والحساب ولذلك

لا يعرفون العملية الحسابية البسيطة السابقة التى تشرح لهم انهم يعملون ٨ ساعات بغير أجر .
٣ ـ ترويج السياسيين والاقتصاديين للفلسفة الهندوكية القائمة على الزهد والفصل بين العمل ونتيجة العمل .
٤ ـ وقوع بعض المصلحين من امثال غاندى فى هذا الخطأ والاستغراق فى المسائل الروحية والفصل بين الروح والجسد وترك ماديات الحياة للاخرين ينهبونها على حين يجوع الملايين من الشعب الهندى .

***

ركبنا الطائرة الى كاجيوراو . انها احدى المدن الصغيرة فى ولاية مادياپراديش فى وسط الهند . ولكنها احد الاماكن الشهيرة فى الهند . قالوا ان بها اثنين وعشرين معبداً وآثارا قديمة تدل على عظمة فن النحت الهندى منذ القرن العاشر حين كان يحكم الهند ملوك تشانديلا .

وكنت قد زرت عدداً من المعابد القديمة الشهيرة في مادورا جنوب الهند ومعظمها تماثيل للالهة والآلهات وهم يرقصون .

لكن الالهة والالهات في كاجيوراو لا يرقصون فحسب ولكنهم ايضا يمارسون الجنس بشتى انواعه واوضاعه . كان ملوك تشانديلا يمثلون نوعا من الثورة على التقاليد القديمة المتزمتة التي تفصل بين الانسان وجسده وتنظر الي الرغبات الجنسية كنوع من الاثم والدنس والضعف.

وقد صور هؤلاء الملوك حياتهم وحياة الآلهة على انها حياة بشرية عادية بعضها حرب ، وبعضها اكل ، وبعضها علم ، وبعضها جنس وبعضها مرح ولعب .

من أكبر المعابد فى كاجيوراو معبد « لاكشانا » « وكانداری » . على الجدران الخارجية رأيت التماثيل تصور الحياة بكافة نواحيها . جيوش من راكبى الفيله يحاربون أعداءهم مواكب الاحتفالات والرقص والغناء . مجالس الحكام . أنواع من العمل . مجرات الطعام . ثم فى أحد الاركان هناك تماثيل عارية لرجال ونساء يمارسون الجنس الثنائي أو الجنس الجماعى . هناك لوحة كبيرة لمجموعة من الرجال والنساء . يداعبون بعضهم البعض جنسيا . ولوحة اخرى لنوع آخر من المداعبات ، ولوحة اخرى لرجل وامرأة أثناء عملية جنسية كاملة .

لم يكن هذا الركن الجنسي يمثل الا مساحة صغيرة فوق الجدران ، فقد امتلأت الجدران بصور اخرى تمثل الحرب والعمل والحكم والطعام والاحتفالات وغيرها . لكني لاحظت أن معظم المتفرجين « أكثرهم سياح اجانب وبعضهم هنود » قد جاءوا من أجل مشاهدة هذا الركن الجنسى فحسب . وسمعت ضحكاتهم وهم يتفرجون ، ووصل الى اذنى بعض تعليقاتهم . وقد ادركت أن ملوك تشانديلا فى العصور الوسطى المظلمة كانوا أكثر من رجال ونساء العصر الحديث فهما للجنس . انهم بصورهم وتماثيلهم لا يقولون أن الجنس هو كل شيء فى الحياة ولكنهم يضعون الجنس فى مكانه الصحيح ويقولون ان الجنس جزء من الحياة . وهم يرفضون ايضا الكبت وانكار الجنس ويقولون أن الحياة الخالية من الجنس حياة ناقصة أو مشوهه .

لكن الناس فى عصرنا الحديث لازالوا مرضى بشيء اسمه الجنس « بسبب الكبت والتربية الخاطئة

والاستغلال التجارى للجنس » ولا زال كثير من السياح فى العالم يدفعون أموالا كثيرة من اجل مشاهدة حوانيت الجنس فى السويد والدانمارك أو تماثيل الجنس فى كاجيوراو والهند . هذا فى الوقت الذى يضربون فيه على يد أطفالهم اذا نطق احدهم بكلمة الجنس .

***

أخذتنا الطائرة الى مدينة صغيرة اسمها « أناند » فى ولاية جوجارات على الساحل الغربى للهند . وهى مدينة صغيرة لكنها شهيرة . كل علبة جبن فى الهند طبعت عليها كلمة « أناند » . مصنع الجبن فى أناند تملكه شركة هندية كبيرة اسمها « آمول » تصنع الجبن والزبد وألبان الاطفال المجففة .

تتبعنا الخطوات التى يمر بها اللبن منذ أن يحلب من ضرع الجاموسة أو البقرة الى أن يصبح علبة جبن تباع فى السوق . نظام محكم دقيق ، والالات فى المصنع تسير بنظام محكم دقيق والمهندس المختص يشرح لنا كيف بدءوا يستخدمون الالات الالكترونية فى التصنيع .

لكن عقلى يشرد بعيدا ، وعيناى تتأملان الصف الطويل من الفلاحات اللائى وقفن بجوار اللبن ويبعن اللبن للمصنع . ان الواحدة منهن تحمل فوق كتفها طفل جائع هزيل هو أحوج ما يكون الى هذه الزجاجة من اللبن التى تبيعها . وبعملية حسابية بسيطة وجدت أن كمية اللبن التى تبيعها الفلاحة نظير روبية واحدة تنتج من جبن آمول ما قيمته خمس عشرة روبية . واذا حذفنا مصاريف المصنع كلها وجدنا أن الفلاحة التى تبيع عشرة أرطال من اللبن تأخذ ثمن رطل واحد وتعطى تسعة أرطال بالمجان .

وهذه الفلاحة لا تختلف كثيرا عن العاملة فى مزارع الشاى التى تعمل ساعة واحدة بأجر وبقية الثمانى ساعات بغير أجر .

قلت أفكارى للمهندس المختص فضحك وقال : هذه هى الصناعة فى كل أنحاء العالم . اذا لم يربح هذا المصنع كل هذا الربح فلماذا يشغله أصحابه ؟

قلت : ولكن أصحابه يربحون الآلاف ، وهؤلاء الفلاحات يحرمن أنفسهن وأطفالهن من اللبن ويعشن على الكفاف .

قال المهندس : ان جاموسهن أيضا كان يعيش على الكفاف بسبب الفقر الشديد ، وقد وجدنا أن العناية بالجاموس ضرورية ليدر لبنا دسما وبكميات وفيرة . ولهذا أنشأنا فى المصنع جزءا خاصا لانتاج علف خاص بالجاموس يغذيه ويزيد من دسامة لبنه . هذا العلف نبيعه للفلاحين والفلاحات وعندنا قسم التلقيح الصناعى للجاموس . نحن ننقل الحيوانات المنوية من ذكور الجاموس الجيد السلالة الى رحم الجاموسة . وتحمل الجاموسة ثم تلد السلالة الجيدة وقد دربنا الفلاحين والفلاحات على كيفية وضع أنبوبة الحيوانات المنوية فى رحم الجاموسة نحن أيضا نربى ونستخرج بعض سلالات ممتازة من ذكور الجاموس .

وأخذنا المهندس الى مزرعة تربية الجاموس ، ورأيت مجموعة من ذكور الجاموس تدور حول نفسها وظننت انها تجر ساقية لكنى لم أر الساقية ، وقال المهندس : هذه تمرينات رياضية لذكور الجاموس حتى لا يترهلوا بسبب عدم الحركة وتضعف حيواناتهم المنوية . اننا نطعمهم طعاما جيدا مخصوصا والرياضة اليومية

ضرورية لهم . كما أن عندنا نظام طبى عالى الكفاءة لرعاية صحة الجاموس سواء هنا فى مزرعة المصنع ام فى القرية . ان رعاية صحة الجاموس من أهم مايمكن للمصنع لان الجاموس هو الذى يعطى اللبن .

واخذنا المهندس الى القسم الطبى فى المصنع ورايت امام المبنى عددا كبيرا من عربات جيب والى جوار كل عربة سائقها .

وسالت : ما هذه السيارات ؟

وقال المهندس : انها سيارات اسعاف الجاموس .

عندنا خدمة اسعاف عالية الكفاءة ، وعندنا عدد من الاطباء البيطريين الذين دربوا فى أعلى الجامعات والمعاهد .

ودخلت الى القسم الطبى ، ورايت عدة اجهزة تليفون وعامل خاص يتلقى الاشارات التليفونية التى تعلن عن مرض جاموسة فى أى مكان فى المنطقة . وبعض اطباء بيطريين فى وضع الاستعداد دائما للاسراع بسيارة الاسعاف الى الجاموسة المريضة . وحقائب اسعاف وادوية حديثة وكل شيء .

ان مركز اسعاف الجاموس هذا أكثر كفاءة من كثير من مراكز اسعاف المرضى من البشر فى بلاد كثيرة بل فى هذه المنطقة بالذات ، ترتفع نسبة وفيات الاطفال والكبار بسبب سوء الرعاية الصحية وانتشار الامراض .

ورعاية الجاموس الصحية تشمل أيضا الرعاية النفسية . قالوا لى انهم يدرسون الاسباب النفسية التى تجعل الجاموسة تحزن ويقل ادرارها للبن . احد هذه الاسباب هو حرمانها من أولادها الصغار . وقال لى احد الاطباء البيطريين مزهوا وهو ينظر فى بعض

الاحصاءات الاخيرة : لم تظهر حالة مرض معدية واحدة بين الجاموس فى المنطقة كلها منذ عشر سنوات وقد تحسنت صحة الجاموس تحسنا كبيرا وزاد ادرار لبن الجاموسة الواحدة عشرة اضعاف فى السنوات الخمس الاخيرة . كل ذلك بفضل نشاط القسم الطبى فى « أناند » .

وبينما نحن نغادر المصنع راينا من خلال السور وجوه الجاموس المتوردة ذات الصحة الجيدة ، ولم نكن قد نسينا منظر وجوه الاطفال والامهات الضامرة الشاحبة فقال زوجى للمهندس الهندى ضاحكا : اذا كانت مسألة تناسخ الارواح حقيقية كما تقول « الجيتا » فانى أود ان تلبس روحى بعد وفاة جسد جاموسة فى « أناند » » .

وضحكنا حتى دمعت عيوننا من شدة الضحك وشدة الاسى معا .

***

فى شرفة فندق « التاج محل » انحنى الجرسون الهندى واضعا امامنا صينية الشاى . وجه أسمر نحيل من تحت عمامة ضخمة بيضاء . أسنان تلمع كالفضة . وابريق الشاى من الفضة أيضا مزين بنقوش اسلامية مغولية .

هواء البحر يملأنى برائحة اليود وحنين لبحر الاسكندرية واحلام الطفولة . أصوات الغناء والرقص والموسيقى تتصاعد مع رائحة البخور الهندية والصندل المحروق والند . وفى أعماقى تستيقظ مشاعر أو غرائز قديمة نامت مع الزمن أو ربما ماتت منذ عصور

مصر القديمة . انهض واقفة واحرك ساقي وذراعي في الهواء واندهش . فهى الحركة نفسها التي يؤديها الاله شيفا مع اختلاف واحد . هو له اربع اذرع وانا ليس لي الا ذراعان .

ضحك صديقي الهندي « شاندرى » بصوت خافت ، او بلا صوت . شهقة اشبه بالشهيق العميق او الزفير الطويل . وهزة راس لم اعرف منها ايقول نعم أم لا . لكن اسنانه البيضاء اضاءت وجهه الاسمر بابتسامة ورشف الشاي بصوت عال ، وقال بصوت خافت :

قدماء المصريين كانوا يرقصون مثلنا ، وذلك لاننا الهنود ...

وقاطعته قبل أن يدخل في حديث طويل عن الهنود وحضارتهم التى يؤمن انها اقدم من حضارة المصريين ، وقلت ضاحكة : ربما اكتشف الاله « شيفا » الرقص لكن الآلهة « ازيس » اكتشفت الحكمة والعقل .

هو استاذ للتاريخ في جامعة بومباى ، ولا يمكن أن يكف عن الحديث الا اذا قاطعه احد .

وقال وهو يرشق « البايب » فى زاوية فمه ، وفوهتها ناحيتى .. ارجوك دعيني اشرح لك الموضوع منذ بدايته ، لان ..

وقلت وانا اطرد بيدى الدخان المتصاعد من انفه وفمه : ارجوك لا استطيع ان اتابع حديثك واصوات الموسيقى والرقص تملأ الكون . انظر هؤلاء الناس الذين تجمعوا بالآلاف !

وقال : انه عيد الاله جانيش .

وقلت : هيا ! نشترك معهم في الرقص فانا لااستطيع

ان أقاوم عدوى الفرح والبهجة بالحياة خاصة اذا كانت جماعية .

هبطنا الى الشارع . مهرجان من الالوان والالحان والرقصات . رجال ونساء وأطفال يملأون الشارع ويمتدون على الشاطىء حتى البوابة الضخمة المفتوحة على المحيط . بوابة بومباي الشهيرة تشبه قوس النصر على رأس « الشانزليزيه » فى باريس . لكنها هنا لاترمز الى النصر . لقد بنيت هذه البوابة من أجل أن يمر من تحتها ملك بريطانيا « جورج الخامس » فى أول زيارة له للهند سنة ١٩١١ . بوابة بنيت كالكوبرى الحجرى الضخم ليمر الملك الانجليزى من تحتها .

وهز شاندرى رأسه وهو يشير باصبعه الى البوابة : الملوك فى الهند كالكوارث وفياضات الأنهار لابد أن تبنى الكبارى ليمرون من تحتها .

وقلت : نعم ، فى عالم السياسة يمكن بناء كوبرى وان لم يمر تحته نهر .

سرنا وسط الجموع حتى الشاطىء . وقف شاندرى تحت البوابة وحملق فى مياه المحيط : السياسة كالتاريخ كالدين علم يحتاج الى خيال ، وليس كل شيء فى السياسة أو الدين ندركه بالحواس أو حتى بالعقل . والا ما أصبح « جانيش » اله رغم أن له رأس فيل .

مجموعة من الرجال يرقصون ويقتربون من الشاطىء يحملون بين أذرعهم تمثال الاله « جانيش » . له جسم طفل منتفخ البطن ورأس فيل . يلمسون الرأس والبطن ويتباركون . أيادى النساء تمتد من وراء الرجال تحاول الحصول على لمسة من الاله وبركة . الاجسام تتزاحم

حول الاله الخشبى . وأيادى الرجال ترتفع عاليا بالاله ثم تهوى به الي قلب المحيط .

ودهشت : اغرقوا الاله جانيش ؟!

وقال شاندرى : لانه ثمرة الخطيئة .

قلت : اى خطيئة ؟

قال : خطيئة الآلهة « برافاتى » مع رجل آخر غير زوجها « شيفا » . وقطع « شيفا » رأس طفلها ، لكنها اعادت الحياة اليه بعد أن ركبت له رأس فيل ، واصبح الاله « جانيش » ونحن الهنود نعبده ونحبه ونحتفل به .

قلت : تعبدونه وتقتلونه غرقا ؟

قال : اغراقه يعنى اغراق الخطيئة ، ولهذا نحتفل بهذا اليوم .

قلت : لكنه يموت غرقا .

قال : لا يموت أبدا . الآلهة لا يموتون . الخطيئة وحدها هي التى تموت ، أما الاله « جانيش » فهو ينقذ نفسه .

قلت : معقول جدا . اذا لم يستطع الاله أن ينقذ نفسه من الموت او الغرق فهل يمكن أن يكون اله ؟.

وثبت عينيه السوداوين الواسعتين من تحت النظارة البيضاء على وجهى وقال بشىء من الاحتجاج : اتتهكمين على آلهتنا ؟

قلت : انا احترم آلهة كل البشر على اختلاف انواعهم ، وعلى الاخص الاله « جانيش » فهو طفل برىء ولا يستحق الموت غرقا . لماذا تحاسبون الطفل على فعل قام به أبوه أو أمه . لماذا لا تحتفلون مثلا باغراق « شيفا » أو برافاتى ؟! هذا هو العدل فى رأيى .

وقال شاندرى : هذا هو العدل الانسانى المنطقى ..

لكن فى عالم الاديان والآلهة هناك عدل آخر غير منطقى . لا يمكن أن نحاسب الاله « شيفا » على أخطائه لانه يملك قوة الدمار والموت .

لا يمكن أن نحاسب الآلهة الذين يملكون هذه القوة . فالمنطق هنا منطق القوة وليس منطق العدل .

ورأيت امرأة ترقص على حافة الشاطىء وتلقى زهورا حمراء فى مياه المحيط حيث ألقى الاله جانيش وتردد بصوت كالغناء : أيها الاله الطيب « جانيش » ، يانصير الضعفاء والاطفال المرضى والجياع ، أتوسل اليك أن تتوسط لى عند الاله الجبار « شيفا » ليحمى طفلى من الموت . انه مريض منذ ثلاثة شهور ولا ينهض مـن الفراش ! .

ترجم لى شاندرى هذه الكلمات وقال : أترين ؟ نحن نعبد « جانيش » لانه اله طيب . لكنه اله ضـــعيف لا يملك الضرر أو المرض أو الموت ، وكل مايملكه هو أن يتوسط بيننا وبين آلهة الموت والدمار أمثال شـــيفا وبراهما وفيشنو .

بدأت عدوى الرقص تنتقل الينا . غمس شاندرى اصبعه فى المسحوق الاحمر المقدس وطبع على جبهتى دائرة حمراء . فى حركة يده وفى تلامس الذرات المقدسة بجسدى تحولت الى امرأة هندية تعبد الاله شـــيفا ، أو ربما أصبحت الآلهة برافاتى نفسها زوجة شيفا التى خانته وانجبت جانيش . وأحببت الاله « جانيش » كأنه ابنى ، من صلبى . ولدته فى مكان وزمان لا أدرى عنهما شيئا .

حركت ذراعى فى الهواء كالمروحة واصبح لى اربعـة أذرع ثم تضاعف العدد بسرعة واصبح ثمانية أذرع .

بسرعة حركتي في الهواء تتضاعف عدد أذرعتي . توقفت لحظة عن الرقص وأنا الهث .

وقال شاندري : اتؤمنين بتناسخ الارواح ؟

وتساءلت : لماذا ؟

وقال : لان روحك الآن لبست جسد بارفاتي وأذرعتها وكانما كنت على وشك التصديق وقلت : اجل ، ربما ، على أي حال ، عقلي لا زال غير مقتنع ، لكني احس في هذه اللحظة انني الآلهة برافاتي ، أو ربما الالهة أزيس، على أي حال كلهن الهات !

وضحك شاندري ضحكته الصامتة كالشهيق أو الزفير ولمعت أسنانه في المساحة السمراء وقال : وكلهن خائنات ! في كل تاريخ الآلهات ليس هناك آلهة واحدة مخلصة لزوجها . وكلهن مثل الالهة برافاتي ، ولكل واحدة منهن طفل مثل « جانيش » .

وقلت : ألهذا السبب لم تتزوج يا شاندري ؟ وشحب وجهه الاسمر : لا . ولكني حين أتزوج سأختار امرأة من وسط العبيد وليس من وسط الآلهات ، فالعبودية تعلم المرأة الاخلاص لزوجها حتى بعد موته . فهي تلقي نفسها في المقبرة معه ولا تتركه يدفن وحده .

قلت : وانت زوجها هل تلقي نفسك في المقبرة اذا ماتت هي قبلك ؟

حك شاندري راسه بطرف اصبعه واطرق الى الارض صامتا ، كأنما يستجمع افكاره أو ذاكرته من زمن سحيق ، ثم قال : المرأة هي سبب الخطيئة وسبب الموت ، وهي المسئولة عن موت زوجها اذا مات قبلها . ولهذا أمرنا الآلهة بأن تدفن الارملة مع زوجها في المقبرة نفسها . واذا عاشت الارملة بعد زوجها فهي تسبب

الفساد والكوارث ، انظرى ماذا فعلت بنا أنديرا غاندى ؟ منذ أن تولت السلطة هذه الارملة وجميع الآلهة غاضبون علينا .

وتساءلت : جميع الالهة فى الهند أم فى بلاد أخرى ؟

وانفرجت شفتاه عن شهقة سريعة :

ماذا تقصدين ؟

وضحكت : لا اقصد شيئا . مجرد محاولة لمعرفة اذا ما كان الآلهة فى الهند يتفقون فى هذا الرأى مع الالهة فى بلاد أخرى من العالم ..

وبدأ اللون الاحمر يتصاعد الى بشرته السمراء وهز رأسه : ربما تؤمنين بآلهة أخرى وهذا حقك . لكن آلهة الهند لا يحبون الارملة ، لانها سبب موت زوجها . لكن الرجل ، ليس سبب موت زوجته . فهى تموت بسبب أخطائها وتكفيرا عن ذنبها . ومن حق زوجها أن يتزوج امرأة أخرى بعد موتها . هذا هو قانون الحياة . ألديك اعتراض على قانون الحياة ؟

وقلت : أتقصد أن قانون الحياة هو أن تدفن الارمل مع زوجها الميت فى مقبرة واحدة ؟

قال : أتعترضين على دفنهما فى مقبرة واحدة ؟ بعض الاديان تعترض على دفن النساء مع الرجال فى مقابر واحدة ، ولابد من دفن النساء فى مقابر خاصة بهن .

كنت لا ازال واقفة على الشاطىء ، تحت بوابة بومباى الضخمة . رائحة البحر واليود تملأنى بالحنين لبحر الاسكندرية وأحلام الطفولة . خيالات فى راسى تشبه خيالات الطفولة ، وصوت جدتى فى أذنى يحكى عن الجان والعفاريت ولكل عفريت ثمانية أذرع طويلة ، و « جنية » البحر لها راس امرأة وجسد سمكة .

صوت شاندرى يشبه صوت جدتى : الآلهة لا يحبون الارامل .

وقلت بصوت طفولي : لعلهم يفضلون العذراوات .

وصاح بدهشة : هذا صحيح ! كيف عرفت هذا ؟

وقلت : لاننى طبيبة نفسية ، وافهم نفسية الآلهة .

وقال شاندرى : لكن الالهة عندنا يختلفون . وليس شيفا مثل فيشنو أو « براهما » .

قلت : قد يختلفون سياسيا . وربما يفضل « شيفا » الراسمالية . وفيشنو ربما له ميول اشتراكية . لكنى اعتقد انهم يتفقون جميعا فى نظرتهم للمراة .

وظل شاندرى يحملق فى وجهى بعينيه السوداوين . اصبحت عيناه ضيقتين كعينى جدتى وبلا رموش . صوته ايضا هو صوتها . واطفال بومباى ينظرون الى بعيون سوداء واسعة يملأها الجوع والدهشة كعيون الاطفال فى قريتى البعيدة على شط النيل ، وعيونى فى الصورة وانا طفلة اقف فى الصف الاول الى جوار زميلاتى فى المدرسة الابتدائية .

اصبح شاندرى هو الذى يرقص الآن . على جبهته الدائرة الحمراء المقدسة . وراسه يشبه راس الاله « جانيش » بدون زلومة الفيل . ذراعاه يتحركان فى الهواء وقد تضاعف عددهما واصبح له اربعة اذرع طويلة كالمخالب . وصوته كصوت الاله الراقص « شيفا » : نحن افضل من غيرنا ، واكثر تقدما ، فنحن لا نعترض على اختلاط النساء والرجال فى المقابر بعد الموت . اما الارملة ؟ ! هل هناك احد يحب الارامل ؟ وقد نشفق على الارملة الضعيفة المستكينة المطيعة لاوامرنا . لكن هذه الانديرا غاندى ؟! انها تمتلك قوة تنافس بها الآلهة . .

واستطاعت أن تتخلص من خصوم أبيها . وكان نهرو يسميهم « الثعابين » . وعجز عن مقاومتهم . واستطاعت أن تنجح فيما فشل فيه « نهرو » . لكن نجاحها معناه سقوط الآلهة ، وخاصة الاله « براهما » وجميع البراهميين أي رجال الدين والفكر عندنا . وهم الطبقة العليا . فنحن لا نفصل بين أملاك الاله « براهما » وأملاك البراهميين .

كان احد الرجال قد اقترب من شاندري وهو يرقص جلباب ممزق تفوح منه رائحة قمامة ووجه شاحب تشتعل فيه عينان سوداوان بوهج الجوع وسقط « ظله » وهو يرقص على سترة شاندرى السوداء من الصوف الانجليزي الثمين . توقف شاندرى عن الرقص فجأة ، ونفض سترته « الظل » كأنه ينفض شيئا له قوام مادي . كالحشرة تماما ينفضها عن ملابسه .

وقلت بدهشة : انه لم يلمسك .

وقال : ظله لمسني وهذا يكفي . كان أبي يستحم اذا سقط عليه ظل واحد من هؤلاء المنبوذين .

ابتعدت أنا الاخرى عن الرجل . رائحته تملأ الدنيا بالقمامة والفقر . تذكرت قول برناردشو : « أنا لا أحب الفقراء ، ولا أحب رائحتهم » . وهل هناك أحد يحب رائحة القمامة ؟ حتى الآلهة في الهند لا يحبون الفقراء والمنبوذين . خاصة الاله براهما وشيفا . مع أن الفقراء هم أكثر الناس حبا للآلهة . ما من معبد دخلته في الهند الا وكان مكتظا بالفقراء . لا يسكفون عن العبادات وتقديم الهدايا للالهة وخاصة الاله « براهما » . لكن الاله « براهما » يأخذ منهم ولا يعطيهم شيئا . انه لا يعطي الا طبقة البراهميين . يغدق عليهم من ماله

واملاكه . مع انهم لا يزورون المعابد ابدا . ولا يقدمون شيئا للالهة ، مثل غيرهم من طبقة رجال الحـــرب « التشاتريا » ، والتجار « الفيشيا » ، والتشودرا أيضا أصحاب الاعمال اليدوية .

وقال شاندري : هذا حال الدنيا . والدنيا ظالمة . لكن الآلهة عادلون . فهم يعطون الاشرار الاموال ويعطون الفقراء الايمان . والايمان أفضل من المال ، والفقـــراء منبوذون فى الدنيا لانها ظالمة وزائلة لكنهم بعـــد الموت سينالون رضا الآلهة ولذلك سماهم غاندى « الهاريجان » يعنى أطفال الاله . نعم . نعم . . . وهز شاندرى رأسه ، نعم لن ينسى « شيفا » « الهاريجان » بعـــد الموت . أما الارامل فلا مكان لهم فى قلب « شيفا » . وكـــان لابد أن تدفن أنديرا غاندى فى مقبرة واحدة مع زوجها منذ سنين . كانت ستنعم برفقة زوجها بدلا من حياتها كامرأة وحيدة بلا رجل ، تعيش فى بيتها وحيـــدة ، وتموت وتدفن فى مقبرتها وحيدة . هذه الانديرا غاندى قد حرمت نفسها من أهم الحقوق التي تحظى بها أبسط امرأة هندية . وهو أن تدفن فى مقبرة واحـــدة مع زوجها .

صوت « شاندرى » لا زال فى رأسى . البحر أمامي والشاطىء . لكنه ليس شاطىء بومباى . انه شاطىء الاسكندرية . وانا أجلس فى شرفة فندق « البوريتاج » أمامي الورق والقلم أحاول أن أكتب . الجرسون النوبى الاسمر ترك لى صينية الشاى وجرائد الصباح . لمحت عنوانا فى جريدة الاهرام « ١٢ ديسمبر ١٩٨٢ » .

« لا يجوز دفن رجل مع امرأة فى قبر واحد .

هل يجوز دفن رجل مع امرأة فى قبر واحد ؟

.. جرى عمل السلف على دفن كل ميت في قبر خاص . فان دفن فيه أكثر من واحد كره أو حرم الا لضرورة ككثرة الموتى وضيق المقبرة .. وروى عبدالرزاق بسند حسن عن واثلة بن الاسقع أنه كان يدفن الرجل والمراة في القبر الواحد ، فيقدم الرجل ويجعل المرأة خلفه وكانه كان يجعل بينهما حاجزا لا سيما اذا كانا اجنبيين وذلك عند الضرورة . أما في غيرها فلا يجوز دفن رجل مع امراة في قبر واحد عند الشافعية . كما قيل لا يجمع بين رجل وامراة في قبر الا لضرورة فيحرم عند عدمها . قال ابن الصلاح : ومحله اذا لم يكن بينهما محرمية أو زوجية .. والذى في « المجموع » ان الجمع حرام حتى في الام مع ولدها .

كتبت بضع كلمات سريعة على ورقة . طويتها وارسلتها عن طريق البرق كأنما هي وصيتي الاخيرة .

فتح البرقية وهو جالس في بيتنا بالجيزة ودهش . كانت كلمات البرقية متكررة الحروف ثأثأة مصاب بداء في اللسان :

أ أ أريد يا يا يا حبيبي أن ن ن ن ت ت تضمني أنا أنا وانت وانت مـ مـ مـ مقبرة وا وا وا وا وا وا وا وا واحدة .

زوجتك المخلصة

لم اكن اطلب في رحلاتي لقاء أصحاب أو صاحبات السلطة . بيني وبين الالهة فوق الارض عداء . أما الالهة من ذوى الاجنحة أو من ذوى الاذرع المتعددة فقد كان من السهل أن التقى بهم في معابد الهند ، حيث يلتقى بهم كل الفقراء والمنبوذين والمنبوذات .

كنت اندهش . كيف يمكن للالهة الحقيقيين امثال شيفا وفيشنو أن يكونوا أكثر تواضعا من الالهة المزيفين فوق الارض ؟

روبية واحدة او كسرة خبز تكفى لان التقى بالاله الجبار شيفا ، أو اله الموت والدمار . وهو رغم الوهيته وجبروته لايعبأ بأن أرتدى له زى التشريفات . وليس له مدير مكتب ولا سكرتير خاص ولا حاجب ولا أحد يمكن ان يعترض طريقى اليه .

لكن هؤلاء الالهة الاخرين الذين يمشون فوق الارض على قدمين وليس لاى منهم أجنحة ، أو أربعة اذرع ، وانما مجرد ذراعين مثلى تماما ، هؤلاء الالهة لم أكن أفكر فى اللقاء بهم . بل اننى كنت أسـعى الى الابتعاد عنهم . حتى صورهم فى الصحف اليومية الصباحية لم أكن أنظر اليها ، لسبب واحد بسـيط هو : رغبتى الصادقة فى استقبال اليوم الجـديد بنفس منشرحة متفائلة .

تعودت خلال السنين الاخيرة الا اقرأ الصحف أول النهار . اخبئها تحت المكتب حتى آخر الليل ثم انساها وانام . لكننى فى صباح اليوم التالى اراها تحت عينى تطل على من تحت عقب الباب .

ذلك الصباح استيقظت مبكرا وبحكم العادة اتجهت عينى نحو الباب وهبطتا حتى العقب . ولدهشتى لم اجد الصحف . رأيت الارض لامعـة نظيفة لا يعلوها شيء . نهضت من الفراش بحركة سريعة نشطة اشـبه بالسعادة المفاجئة . واكتشفت فى لحظة خاطفة كضوء الكشاف لماذا أصبحت أحب السفر : كنت اريد ان افتح عينى فى الصباح فلا أرى الصحف .

والصـــــباح فى نيودلهى كان مشرقا ، وقد أحببت شمس الهند فى الشتاء . فهي شمس قوية أقوى من اى ريح باردة . لكنها ليست قوة غاشمة مستبدة وانما قوة الكواكب العظيمة الواثقة فى نفسها . قوة الالهة الحقيقيين من ذوى الاذرع المتعددة والقلوب الرحيمة المتواضـــعة تحتضن الكل بالتساوى ، لا فرق بين منبوذ أو مهراجا.
اغرقتنى شمس الصباح وانا جالسة فى الشرفة أطل على القباب المغولية وانصت الى زقزقة العصــــــافير وسمعته يقول :
لقد زرت الهند عدة مرات وعشت فيها شـــهورا ، وتجولت فيها شمالا وجنوبا ، ولا يمكن لك أن تتركى الهند دون أن تقابلى أنديرا غاندى !

***

لم يمض على ذلك الصباح بضعة أيام ووجدت نفسى داخل السيارة الصغيرة التى اجتازت البوابة الحمراء الكبيرة التى تقود الى « راشترايا فى بافان » وهو مقر الحكومة فى العاصمة دلهى . لم أر الا حارسا واحدا على الباب الخارجى ، ولم أجد الا سكرتيرا واحدا صافحنى بابتسامة الهندى المتواضعة ثم اذا بى فى مكتب رئيسة الوزراء : أنديرا غاندى .
كانت واقفة مرتدية « السبــــارى » الذى يزيد من قوامها المشوق ، وعلى وجهها ابتسامة تنســـجم مع اشراقة الخصلة البيضاء فوق جبهتها المســــتقيمة الواضحة . ادركت لاول وهلة أن وجههـــا يعبر عــن شخصية اقوى واكثر تميزا من الوجه الذى رأيته لها فى الصحف والمجلات والكتب . هى اذن من هذا النوع من الناس الذين تعجز آلة التصوير عن نقل شخصيتهم

وروحهم الحقيقية للناس .

شعرت وأنا أصافحها براحة تغلبت على الضيق الذى أحسه دائما وأنا داخل مكاتب أصحاب السلطة من أى نوع . لابد أننى ابتسمت فى هذه اللحظة واتخذ جسمى وضعا طبيعيا مريحا في المقعد المواجه لمقعدها .

وجها لوجه وعينا فى عين زاد شعورى بأننى أمام امرأة قوية . كنت قد قرأت بعض الكتب عن طفولتها وحياتها وكفاحها قبل وبعد وفاة أبيها نهرو . شاركت مع زعماء الهند ومع جيلها من الرجال والنساء فى الكفاح ضد الاستعمار . وحين أحبت رجلا من غير دينها ومن غير طبقتها (كان من الفارسيين الذين يعبدون النار ومن طبقة فقيرة) صممت على أن تتزوجه ، رغم أن زواجها منه كان مخالفا لجميع تقاليد الهند . لكنها ضربت المثل فى أن الزواج يجب أن يبنى على الحب والتفاهم . وكان هذا الفعل من جانبها ثورة فى المجتمع الهندى الذى يقوم على التفرقة الشديدة بين الطبقات والاديان . فى فترة ما من حياتها كادت أن تترك السياسة والكفاح العام وتتفرغ لحياتها كزوجة وأم ، لكنها لم تستطع . ان الكفاح السياسى فى دمها ، رضعته وهى طفلة وشاركت فيه طوال شباها وشبابها . لم تكن حياتها سهلة ، ولم يكن لامرأة بغير قوتها أن تنجح فى قيادة المجتمع الهندى الكبير الذى لازال فى معظمه مجتمعا رجاليا يسود فيه الرجل داخل الاسرة وخارجها ، ذلك المجتمع المترامى الاطراف ، الملىء بالمشاكل والثروات معا ، والذى خرج من قبضة الاستعمار لكنه لازال يعانى آثاره . فى الهند الان حوالى ٣٠٠ مليون شخص يعيشون دون الكفاف ، وفى كل مكان نرى هؤلاء البشر الجالسين أو الراقدين

على الارض ، أو الذين يعيشون داخل أكواخ من الصفيح أو القش أو الخيش ملايين من الناس رجالا ونساء وأطفالا اتخذوا من الرصيف بيوتا ، يأكلون وينامون ويستحمون ويموتون فوق الرصيف .

كانت أنديرا غاندى محاطة الاوراق العديدة فوق مكتبها . عيناها مليئتان بحيوية غريبة ، وابتسامة تكاد تكون مرحة ، وربما نسيت فى بعض اللحظات اننى أمام المرأة التى لقبها الغرب بأقوى امرأة فى العالم ، لكننى سرعان ما كنت ادرك أنها هى أنديرا غاندى بتلك النظرة العميقة فى عينيها والانقباضة فى عضلات فمها حين تتكلم ويتخذ وجهها الصرامة والجدية اللازمة لاصحاب السلطة .

وبدأت أنديرا غاندى تقول :

« صداقة العرب والهند صداقة قديمة. وعلينا أن نقوى هذه الصداقة ونجددها دائما . وبالرغم من أن بعض زعمائنا ومنهم المهاتما غاندى قد عطفوا على اليهود بسبب اعتداء هتلر عليهم الا اننا لم نؤمن أبدا بالطريقة التى خلقت بها اسرائيل . ان مشكلة الشرق الاوسط (نسميها هنا منطقة غرب آسيا) لم تكن الا مشكلة أوروبية حاولت أوروبا أن تحلها على حساب الشعب الفلسطينى . نحن هنا فى الهند نساند الشعوب العربية لانهم ظلموا ، وقاوموا الاستعمار والاستغلال كما حدث لنا سنين طويلة . لقد عانينا فى الهند من أزمة البترول مثل غيرنا من البلاد لكننا نرى أن مشكلة الشرق الاوسط لابد أن ينظر اليها نظرة عادلة شاملة . من حق البلاد العربية أن تكافح وتحرر أموالها من قبضة البلاد المتقدمة. ومن حق جميع البلاد النامية أن تفعل ذلك . ونحن فى

الهند نحب السلام وهدفنا دائما هو الصداقة وازالة سوء التفاهم والقضاء على الكراهية . رغم كل شيء ساندنا الصين وأيدنا انضمامها الى هيئـــــة الامم . وكان السوفييت أول من ساعدنا في انشاء صناعة ثقيلة في الهند . ونحن نحاول أن نقضي على الفقر في بلادنا . لكن استمرار بقاء مشكلة الفقر لاتعني فشلنا في الهند كمجتمع ولكنها تعني فشل نظام العالم الحديث . في تحقيق العدالة . ان البلاد المتقدمة تحظى بكل خيرات العالم رغم قلة سكانهم . انهم يستهلكون أكبر كميات من القمح والبروتين والفواكه والبترول وكل شيء . ولا يتركون لشعوب العالم الثالث الا القليل رغم كثرة السكان . ولا ترجع مشـــــكلة الفقر في بلادنا الى كثرة السكان كما يقولون في الغرب . ولكنها ترجع الى خطـأ في النظام العالمي . وقد غضبوا مني في الغرب بسبب رأيي هذا . لكننا في الهند نعرف مشاكلنا ونعرف أسبابها الحقيقية . ونحن ندرك أن التصنيع والتنمية الشاملة وخروج النساء الى العمل أهم العوامل التي تؤدي الى انجاح برامج تنظيم الاسرة . وقد تقدمت الهند في هذه المجالات وانخفض معدل المواليد عن ذي قبل . والمرأة الهندية تعمل في كل مكان . وأنا لم أصادف في عملي كرئيسة للوزراء مشكلة واحدة بسبب كوني امرأة ، ولكنني بالطبع واجهت في حياتي العديد من الصراعات التي استطعت التغلب عليها . ان الانسان لا يقوى الا من خلال انتصاره على الالام والصراعات التي تواجهه في حياته . والنساء في الهند تشارك في جميع المجالات . عندنا ولايتان ترأس الوزراء في كل منهما امرأة . وفي كل ولاية في الهند تشترك في الحكومة وزيرة امرأة على

الاقل . وعندنا عديد من عضـوات البرلمان وممثلات الاحزاب المختلفة . عندنا قاضيات فى مختلف الولايات. وفى القرى هناك نساء منتخبات فى المجالس القروية ، ونسبة الجامعيات والمتعلمات والعاملات فى كل المجالات أعلى من البلاد المتقدمة . ولنا فى الهند تاريخ فلسفى عميق يساوى بين الرجال والنســاء . ثم أن زعماءنا السابقين من أمثال مهاتما غاندى وابى نهـرو وغيرهم كانوا يدعون دائما الى مساواة المرأة والرجل ، وخروج المرأة الى الحياة السياسية والانتاج . وقد شاركت النساء فى الكفاح قبل الاستقلال ودخلن السجون مع الرجال . اثبتت النساء انهن قادرات على العمـــل والتضحية ولهذا كان من الطبيعى بعد الاسـتقلال أن تستمر النساء فى عملهن السياسى وفى الانتاج . كان والدى نهرو متمردا مؤمنا بأن المرأة كالرجل لذلك لم أشعر فى يوم بأى تفرقة او اضطهاد لانى امرأة ، واخذت كل فرصتى فى التعليم والعمل السـياسى . لكن امى حرمت من هذا وكانت آسفة على ذلك دائما . لست أوافق على الرأى القائل بأن الام يجب أن تتفرغ لبيتها وأطفالها . المرأة تستطيع ان تكون أما وعاملة فى الوقت نفسه . أن رعاية الطفل واعطاءه الحب لايعنى أن تتواجد المرأة فى البيت طول النهار . ماهو مهم فى تربية الطفـل ليس هو كمية الحب ولكن نوع هذا الحب . هناك نساء متفرغات فى البيوت ولا يعطين حبا لاطفالهن . وهناك نساء عاملات يعطين الحب الحقيقى لاطفالهن فى الفترة القصيرة التى يعدن فيها الى البيت ، وهن أيضا قادرات على منح أطفالهن الاستقلال الذى يساعدهم على النضوج واستقلال التفكير عن الاخرين . لذلك انا لا أوافق على الطريقة المتخلفة التى تظهر بها المرأة الهندية فى أفلامنا .

فالمراة الهندية فى الحياة الحقيقية اكثر احتراما واكثر ايجابية وكفاحا وتقدما منها فى الافلام الهندية . لكن السينما حرة فى الهند والحكومة لا تتدخل فى شئونها . نشجع الان مجموعات من الشباب لعمل أفلام جديدة متقدمة ـ ولكن الدور الاساسى لتطوير الفيلم الهندى يجب أن تلعبه الجمعيات النسائية والتنظيمات الشعبية. ان واجب هؤلاء هو تنوير الراى العام وجعل المساواة بين الجنسين حقيقة فى الحياة اليومية للناس لتنعكس فى الافلام ويعبر الفن الهندى تعبيرا حقيقيا عن حياة الرجال والنساء فى الهند . ان جميع القوانين تساوى المراة بالرجل ولكن تطبيق ذلك فى الحياة والفن يقع على عاتق التنظيمات النسائية والنساء انفسهن . لقد زرت فى الفترة الاخيرة هذه الجمعيات ووجدت انها تقوم بنشاط كبير فعلا ، ولكن وجدت ازدواجا فى بعض الانشطة ، وأن كل جمعية منعزلة عن الاخرى وليس هناك تنسيق بين الجمعيات المختلفة . كما ان معظم الانشطة مركزة فى المدن والطبقة المتوسطة ولا تتوغل بالقدر الكافى فى الريف وبين الطبقات الفقيرة . ان جهودى موجهة لتقوية الانسان الهندى والقضاء على التفرقة بين الطبقات وحماية الانسان الهندى من أن يتحول الى ترس فى آلة . ان تحويل الانسان الى ترس فى آلة مشكلة فى البلاد الصناعية المتقدمة ، لكنها ليست مشكلة الان فى الهند ، واحاول أن ابذل جهودا وقائية لحماية الانسان الهندى خاصة واننا نسير بخطوات سريعة نحو التقدم الصناعى . نحن نهيىء الظروف للتلميذ والتلميذة والعامل والعاملة للقراءة خارج المنهج المقرر وخارج العمل وخارج المصنع حيث تنمو قدرات الشخص الفكرية ومواهبه

الخاصة . بمعنى آخر لا يحبس عقل العامل داخل المصنع ، ولا يحبس عقل التلميذ أو التلميذة داخل المدرسة . ولابد من الاطلاع على الثقافات الاخرى . ان الهند ومصر لهما تاريخ عريق ولهما ثقافة متقاربة ولكننا لا نعرف عن الادب العربى الا القليل وكذلك لايعرف العرب عن الادب الهندى الا القليل . والسبب فى ذلك هو مشكلة الترجمة . ان الادب الهندى مترجم الى اللغة الانجليزية بكميات هائلة ولكنه لايترجم الى العربية الا نادرا . والحال نفسه أيضا بالنسبة للادب العربى . فلماذا يحدث ذلك رغم أن الانجليز قد خرجوا من مصر ومن الهند ، ورغم أن اللغة الهندية وبالذات اللغة الاردية تحتوى على ١٠٪ منها على كلمات عربية . نحن فى حاجة الى جهود كثيرة فى مجال الترجمة . لابد أن يقرأ الانسان الهندى عن الانسان العربى دون أن تكون اللغة الانجليزية هى الوسيط بينهما . انى أثق فى المستقبل وأعتقد أن صلتنا بالعرب وبمصر سوف تزيد على الدوام . »

***

وانتهى كلام أنديرا غاندى . وخرجت من مكتبها متفائلة قرب الظهر . وفى المساء لبيت دعوة عشاء مع كاتب هندى عجوز ، تربطه بأنديرا غاندى صلة قرابة ، لكنه من المعارضين لسياستها . لم يعترف بأى صفة حسنة لانديرا وقال : كله كلام فى كلام . وماذا يمكن أن ننتظر منها ؟ والارملة فى تاريخنا شؤم وخراب .

وفرغت صحونه من الطعام ، وامتلأ صدرى بالتشاؤم . وخرجت لكن وجهه ظل امامى مليئا بالتجاعيد . وصوته يذكرنى بصوت جدتى .

كنت طفلة فى السادسة ، وهى تحكى كل ليلة قبل أن

إنام حكاية الغولة . تهز رأسها الملفوف بالمنديل الاسود وتردد كأنها تغني وعيناها نصف مغمضتين :
ـ هائلة مخيفة ...
ـ كل أصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين..
ـ وفي راس كل اصبع منها ظفران حديديان مثل المنجلين ....
ـ وكان موضع جلوسها جريبا من الارض ...
ـ وهي أول من بغي على وجه الارض ...
ـ وعمل البخور والسحر ...
ـ وجاهر بالمعاصي ..
ـ ولذا أرسل الله عليها أسود كالفيلة ..
ـ وذئابا كالابل ...
ـ ونسورا كالحمر ...
ـ فقتلوها وأراحوا الارض من شرها .

واخفي وجهي تحت الغطاء وانا اسأل جدتي بصوت خافت : هل هي جنية البحر ؟!

وترد جدتي : لا . انها أمرأة من لحم ودم ، مثلي ومثل امك ، ومثلك حين تكبرين وتصبحين أمرأة مثلنا .

واهمس من تحت الغطاء : وما اسمها ياجدتي ؟

وتهمس جدتي بصوت كفحيح الثعبان : اسمها عناق أم عوج ، احدى بنات آدم لصلبه ، لعنها الله هي وأمها حواء .

أدركت بعد التنقل في انحاء الهند الشاسعة أن هذا البلد العريق الضخم ينطوي في أحشائه على تاريخ البشرية منذ بدء ظهور الانسان البدائي حتى عصرنا هذا في الثلث الاخير من القرن العشرين .

في ساعات قليلة بالطائرة كنت أتنقل فجأة من المجتمع

الابوي الشديد التزمت الشديد الاستغلال للمراة الى المجتمع الاموى حيث لايزال ينسب الاطفال الى امهاتهم وترث البنات الارض عن الام وترتفع مكانة النساء فى هذا المجتمع الاموى ارتفاعا كبيرا فى مختلف نواحى الحيـــاة والعلوم والفنون .

وبعد ساعات قليلة بالطائرة اهبط على الارض تبدو لي كانها جزء من العصر الحجرى القديم وارى الرجال فى البيوت يتزينون بالمساحيق البيضاء والحمراء وفى آذانهم حلق ذهبي أو فضي . واندهش حين أرى أصابع الرجال ناعمة رقيقة (لانهم لا يعملون شيئا سوى الاشراف على المعابد والرقص فى الحفلات الدينية » أما أصابع النساء فهى قوية خشنة بسبب مسك الفاس طول النهار فى الحقــل .

وحينما تهبط بى الطائرة فى مطار من مطارات البلاد الشهيرة بمعبد من المعابد او حينما أصل اليها بالقطار ، فان المطار او المحطة يكتظ دائما بهؤلاء البشر الجالسين او الراقدين على الارض ، اجساد متلاصقة ، الجسد جوار الجسد ، لا تكاد تعرف الذكر من الانثى ، ولا الطفل من العجوز ، فكلهم هياكل عظمية متشابهة تغطيها طبقة سوداء ، من الجلد الجاف ، والوجه ليس الا جمجمة تلتهب فى وسطها عينان سوداوان واسعتان فيهما نداء صامت واحد : نريد أن ناكل .

بعد ساعات من هذا المنظر المفزع تنقلني السيارة فى دقائق قليلة الى شوارع نظيفة ، وبيوت أنيقة تشبه فيللات الاثرياء فى لندن أو واشنطن او المعمورة . وارى الوجوه نضرة ممتلئة باللحم متوردة وأيضا كلابهم (اخذ اثرياء الهنود عن الانجليز هواية تربية الكلاب) أرى كلابهم تجرى

فى الحدائق الفيحاء متوردة الملامح سمينة تأكل اللحم بغير عظم .
وفى مدينة بومباى التى تشبه نيويورك فى أجزاء منها التقى ببعض رجال العلم من ذوى الشـــهادات العالية والدكتوراه واعجب بثقافتهم الواسعة ولكنى اراهم بعد دقائق جاثين فى خشوع امام الاله « جانيش » الذى له جسد انسان وراس فيل .
وفى شوارع نيودلهى العاصمة أرى الحدائق الجميلة النظيفة والشوارع الواسعة اللامعة ، ولكن هنا أيضـــا أسراب البقر تسرح جماعات ووحدانا فى جميع الشوارع ، وهؤلاء الذين يحرمون لحم البقر ، وهؤلاء الذين يعبدون النار او الشمس او اى كائن حى ، وهؤلاء الذين يعلقون موتاهم فى الشجر لتأكلها النسور المسماه « قالتشرز » .
كل شىء واى شىء يمكن أن تراه فى الهند . حتى احلامى المزعجة وانا طفلة رايتها فى الهند ، حتى اغرب الخزعبلات البعيدة ، عن اى عقل بشرى وجدتها فى الهند ، هذا كله الى جوار أحدث المعاهد العلمية ، وأرقى الصناعات ، واعلى نسب فى العالم من ذوى الحاصلين على أعلى الشهادات ، سواء كانوا رجالا او نساء .
من الصعب على العين الغريبة عن الهند أن تلمس قوة المرأة الهندية . كثير من الصحفيين يذهبون الى انديرا غاندى رئيسة الوزراء ويسالونها كيف تقود هذا البلد الضخم وهى امرأة فى مجتمع رجالى ينظر الى المرأة كمخلوق اقل من الرجل . هؤلاء الصحفيون لم يروا من المرأة الهندية الا هؤلاء القلة ممن تعلمن فى المعـــاهد والجامعات فى أوربا وأمريكا واثرت فيهن ثقافة الطبقة المتوسطة فى هذه البلاد الغربية .

لكن المتعمق قليلا فى حياة المرأة الهندية يدرك أن النساء الهنديات بصفة عامة يتمتعن بقدر أكبر من الاحترام والمساواة من النساء فى بلاد أخرى كثيرة .

وقد تحيرت فى أسباب ذلك الارتفاع لمكانة المرأة الهندية وبالذات فى جنوب الهند فى تلك الولايات مثل ولاية كيرالا « التى كانت بمنأى عن هجمات المستعمرين ولم تغزوها ثقافة الغرب الراسمالية الابوية القائمة على استغلال المرأة . ان ولاية « كيرالا » تتميز بارتفاع فى نسبة المتعلمين وتطور الصناعة ورقى الثقافة وارتفاع مكانة المرأة وانتشار الاسر الاموية .

وقد وجدت أيضا أن احد أسباب ارتفاع مكانة المرأة الهندية سياسيا واجتماعيا هو أن الديانة الهندوكية فى أصلها لا تفرق كثيرا بين الرجل والمرأة ، وأن الالهة فى هذه الديانة ليسوا ذكورا فحسب ، ولكن هناك الالهات الاناث وكم من هنود يركعون أمام الالهة « برافاتى » أو الالهة « لاكشمى » وغيرهما الكثيرات .

عشت فى الهند بضعة شهور اتجول بين ولاياتها الشاسعة المتباينة ، ازور المعابد والمزارع والمصانع والجامعات ، والتقى فى كل ولاية بعدد من الادباء والاديبات وقيادات مختلفة لاحزاب متعددة من أقصى اليمين الى اقصى اليسار . ودفعتنى هذه الجولات وهذه اللقاءات الى أن أقرأ عن تاريخ الهند ، وأديانها ، وبعض الروايات الهندية والقصص والشعر . كنت كلما ازددت معرفة بالهند كلما أدركت صعوبة الالمام بما فيها من تراث متشعب وثقافات متعددة وتيارات وتناقضات لا حد لها . هناك أشياء كثيرة مشتركة بين مصر والهند ، وكم من أحيان نسيت فيها اننى فى بلد

غريب خاصة فى تجولاتى بين الاثار الاسلامية التى تشكل اهم وابرز حضارة فى تاريخ الهند (حكم المسلمون الهند ثلاثة قرون ونصف من ١٥٠٠ - ١٨٥٠) . لكن الاستعمار الانجليزى للهند الذى استمر حوالى القرنين ترك بعض بصماته على الشخصية الهندية أكثر مما تركها على الشخصية المصرية . كثيرا ما يصادفك ذلك الرجل الهندى الذى يعيش على الطريقة الانجليزية ، فاذا به يضع « البايب » فى زاوية فمه ، ويتكلم الانجليزية من أنفه ، ويرتدى البالطو الانجليزى فى عز الحر ، ويشرب شاى الساعة الخامسة والدنيا ملتهبة كجهنم ، وأيضا هناك كلبه الذى يأخذه كل صباح للتريض .

لكن هناك ايضا الشخصية الهندية التى وعت فلسفة غاندى ونهرو ناضلت من أجل الاستقلال وعايشت استقلال الهند منذ سبعة وعشرين عاما . ان متابعة الجرائد اليومية فى الهند متعة . يشعر المرء أنه فى بلد ديمقراطى رغم المشاكل العديدة التى لاتزال تواجهها حكومة أنديرا غاندى الا أن ماحدث فى الهند من تقدم منذ استقلالها حتى اليوم ينبىء بأن هذا العملاق الاسيوى قد هب من رقاده ، وأن قوته الجديدة المتزايدة مع قوة العملاق الاسيوى الاخر « الصين » قد أصبحتا مثار قلق شديد فى العالم الاوربى والامريكى ، هذا العالم الذى أطلق على نفسه اسم « العالم الاول » ايمانا بسيادته ، وأطلق على بلاد آسيا وافريقيا اسم « العالم الثالث » .

لكن التاريخ يتغير على الدوام ، وكم من امبراطوريات عظيمة تهاوت وحلت مكانها بلاد أخرى . هل يعيد

التاريخ نفسه ويصعد العالم الثالث الى فوق وتتهاوى امبراطورية العالم الاول ؟ هناك من تنبأ بذلك من علماء الغرب ، ولعل هذا هو سبب ذلك الذعر الذى اصبح يعم بلاد العالم الاول وهو السبب ايضا فى ان بلاد العالم الثالث اصبحت تتجمع وتتآزر معا فى مواجهة اطماع العالم الاول .

***

فى ليلة مظلمة بغير قمر وقفت فى خشوع أمام الاله « فيشنو » ، فى حوض نهر « جانداك » . صورته ليست صورة انسان مثل الاله « شيفا » . أو نصف انسان ونصف فيل كالاله « جانيش » . ولكنه تجسد على شكل ثمرة تشبه الموز والرأس كعضو الذكر يشبه الزهرة المتفتحة المتأهبة للاخصاب .

وتقول الاسطورة أن الاله « فيشنو » أراد أن يضاجع « تولس » زوجة « كور السافكى » وفكر طويلا فى الامر ثم تنكر فى ملابس زوجها واستطاع أن يحقق أمنيته . لكن « تولس » اكتشفت خدعته بعد فوات الاوان ، واستطاعت بقوتها الالهية أن تصب عليه اللعنة بأن يتحول الى حجر . وكان الاله « فيشنو » أيضا قادرا على أن يرد لها اللعنة بأن يتحول شعرها الى نبات تولس وجسدها يتحول الى نهر جانداك . وحتى هذا اليوم فى الهند فان أى زهرة فى حوض جانداك تنمو على شكل « شاليجرام » وهو صورة الاله « فيشنو » بعد أن تحول الى عضو ذكرى . ويؤكد الهنود على أن علاقة « فيشنو » و « تولس » تعيش حتى اليوم والى مابعد الموت ، وفى شهر اغسطس من كل عام ، فى الليلة المظلمة تماما بغير قمر يحتفل الهنود بعبادة نبات تولس

واخصابه بواسطة « الشاليجرام » . لقد تحولت اللعنة في الاسطورة الى بركة . وتسعى النساء والرجال المصابين بالعقم الى حوض نهر جانداك فى تلك الليلة المباركة بغير قمر ، من أجل أن تحل بهم بركات «فيشنو» اله الاخصاب .

وقال الفيلسوف الهندى الفقير الجالس على حافة النهر داخل معبد هندوكى صغير طلى بالجير الابيض : عندنا فى الهند آلهة كثيرون ولدوا بغير آباء . أو من ضلوع الرجال أو رءوسهم أما الاله « برتيفى » فقد ولد من الفخذ الايمن لابيه « فانى » . والاساطير عندنا ليست خرافات . انها حقائق تحولت الى أساطير بعد تحريفها . كل الالهة الذين ولدوا من أجساد الذكور ليسوا الا أبناء العلاقات الاثمة . لكنها فى ذلك الوقت لم تكن آثمة . كانت مقدسة لان الام كانت الهة مباركة ، ثم تحولت البركات الى لعنات . أو على الاصح أصبحت البركة هى اللعنة مثل الشمس وظلها يمكن أن يحدثا فى اللحظة نفسها والمكان نفسه وهذا هو سر الحياة . وجود الشيء ونقيضه فى وقت واحد وفى جسد واحد .

كانت الدنيا ليل ، والظلمة شديدة بغير قمر . مياه النهر سوداء . زهور الشاليجرام والتولس تتمايل وتتعانق خلسة دون أن يراها أحد . النهر يمتلىء فجأة بالزهور الوليدة تلمع تحت ضوء النجوم كآلاف من السمك الصغير .

وفى الضوء الخافت رأيت امراة فارعة الطول تخرج من النهر . لها ذيل سمكة مثل جنية البحر . ملامحها حادة قوية تشبه ملامح الالهة . وعيناها سوداوان ثاقبتان كعينى حتشبثوت او الالهة ايزيس .

ومياه الطمي تلونت بالطمي الاحمر الداكن ، مثل نهر النيل . وعلى سطح الماء رأيتها تمشي بخطوات سريعة كانها تمشي على الارض . ومن حين الى حين تنثني وتلتقط شيئا تدسه في فتحة ثوبها . ودققت النظر ، ودهشت . كان الاله فيشنو أو « الشاليجرام » قد تبعثرت اجزاؤه كالاشلاء الصغيرة ، وهي تحاول أن تلم الشتات قطعة قطعة تضمها بعناية داخل جلبابها . وتكومت أجزاء الاله كلها تحت الجلباب فوق صدرها وبطنها . وحين رفعت راسها الى أعلى وسارت فوق الماء بدت كالمرأة الحامل . لكنها لم تكن تحمل إلا الاله الذى اخذ اسما جديدا : « أوزوريس . » وكشف الفيلسوف الهندي عن أسنان بيضاء في وجه شديد السمرة وقال وهو يهز رأسه على طريقة الهنود : « نعم .. نعم .. « الشاليجرام » و « تولس » هما الاب والام ، لكن الام تحولت الى لعنة والاب أصبح الاله . والاله عندنا معصوم من الخطأ وان تنكر في ملابس الزوج . أما المرأة فهي مخطئة دائما سواء فعلت أم لم تفعل . ويرجع ذلك الى أن الاله خصها باللعنة .

وهمست في الليل وانا لاازال احملق في الزهور الاثمة: بدأت الاديان الذكرية بالظلم العظيم .

***

واعظم ظلم في تاريخ الهند وقع على مائة الف امرأة هندية حملن سفاحا اثر معركة اغتصاب مسلحة . وقد تنكر الالهة في زى الجنود وحملوا أسلحة انجليزية وملامح هندية واقتحموا المدينة في ليلة مظلمة بغير قمر . والمدينة هندية لكنها بعد التقسيم اصبحت في الباكستان الشرقية ـ دخل الجنود المسلحون الى المدينة

الجامعيه وذبحوا الذكور ثم اغتصبوا الاناث .

والمرأة آثمة (حسب التعاليم المقدسة) سواء فعلت أم لم تفعل . سواء رغبت أم لم ترغب . سواء اغتصبها الرجل بالقوة المسلحة الانجليزية أو بأى قوة ذات جنسية اجنبية أو متعددة الجنسيات .

لم يكن الالهة فى ذلك الوقت يعرفون شيئا عن القوى المتعددة الجنسيات ، لكنهم كانوا يعرفون شيئا واحدا محددا : اذا حملت المرأة دون أن يعرف الاب فهى آثمة.

وفى المحكمة ارتدى الاله « فيشنو » زى القاضى الباكستاني وحملق فى بطون مائة الف امرأة حامل بغير اب معلوم . وأصبح بياض عينه أحمر كأنما ينظر الى الجحيم ، وضرب المطرقة الحديدية على راس المنضدة الخشبية وصاح بذعر : مائة ألف بطن تحمل مائة الف من أجنة الاعداء ؟! لابد من اعدامها جميعا !

وثار ضمير العالم البشرى . ماذنب النساء ؟ ماذنب الجنين البرىء ؟

وتحركت ضمائر الكهنة فى المعابد ورجال الاديان فى بقاع العالم . ثم تذكروا فجأة أن هناك شيء اسمه « المغفرة » والالهة يغفرون الاثم أحيانا لمن يشاءون . وهز أحدهم لحيته الطويلة البيضاء وقال : نعم ، احيانا، فلماذا لاتكون هذه المرة من تلك الاحيان ؟ فالاجنة بريئة لاشك ولا يجوز قتلها ، والنساء أيضا قد يكون فيهن البريئة التى قاومت الاغتصاب حتى الموت . وبذلك أنقذها الموت من الحمل سفاحا بواسطة العدو . وعلينا أن نطلب المغفرة لهؤلاء البريئات اللائى متن دفاعا عن شرفهن أما هؤلاء اللائى يقفن أمامنا الان ببطونهن المنتفخة بالاثم فلا مغفرة ولا رحمة بهن ولابد من تنفيذ قرار

الاعدام عليهن فورا !
وصاح رجل آخر : ولكنك قلت سيادتك أن الاجنــة بريئة ولا يجوز قتلها واذا أعدمت الامهات فسوف تقتل الاجنة فى بطونهن ايضا . وهذا ظلم للارواح البريئة .
وهرش الرجل شعر لحيته الطويلة وطرقع أصابعه وتمطى ثم قال : نعم نعم لك حق فيما تقول ويمكن تأجيل قرار الاعدام حتى بعد الولادة .
وزمجر رجل من الجالسين فوق المنصة : لا .. وهذا ايضا أمر غير مقبول بل خطير . سيصبح فى بلادنا مائة الف طفل غير شرعي . وياليتهم غير شرعيين فحسب ، ولكنهم جميعا جاءوا من صلب رجال من الاعداء . وسوف يبحثون ان عاجلا أو آجلا عن آبائهم ويصبحون بالطبيعة مثل آبائهم اعداء لنا !
ودب الصمت فى قاعة المحكمة . ثم نهض القضــاة وساروا يتعثرون فى اذيال جلاليبهم ولحاهم الطويلة تهتز فوق صدورهم . اختفوا واجمين فى غرفة المداولة ثم عادوا مستبشرين وقد عثروا على الحل . وصاح كبيرهم وهو يخبط بالمطرقة الحديدية :
تؤجل الجلسة الى الاسبوع القادم للدراســـــة واستشارة الخبير الامريكي .
حملق الرجال الهنود فى ذهول . ما دخل الخبير الامريكى فى أمورنا الخاصة شديدة الخصوصية مثل هذا الامر المتعلق بشرف مائة الف امرأة من نسائنا .
الا ان الصحف بدأت ترد على تساؤلات الرجال . ونشرت مقالات عن الخبرة الامريكية فى عمليات الاجهاض الحديثة . وان الاجهاض وان كان محرما فى جميع الاديان الا أنه جائز فى بعض الاحيان .

وصدر القرار الاستثنائي باجراء عمليات اجهاض جماعية لقتل مائة ألف جنين . وتساءل احد الرجال من ذوى الضمير الحي : ولماذا تقتل الاجنة البريئة ؟ لكن احدا لم يرد عليه . وتم تنفيذ القرار فى جنح الليل .

احدى الامهات رفضت أن تقتل جنينها . حكموا عليها بالاعدام الاخلاقى . وقالوا فى أسباب الحكم : لانها عصت الالهة وأحبت طفلها الاثم ابن العدو ، ولا يمكن للام أن تحب طفلها وتكره اباه .

وهكذا أسدل الستار على مأساة عام ١٩٧١ فى تاريخ الهند أثر قرار التقسيم ، ومآس اخرى راح ضحيتها آلاف الهنود قبل أن يؤدى الاستعمار الانجليزى طقوس الوداع الاخير لاهم المستعمرات في الامبراطورية البريطانية المتهاوية شيئا فشيئا .

وها هو صوت أمريتا برتيام شاعرة البنجاب والبنغال وبيننا صينية الشاى فى بيتها الصغير فى نيودلهى : تآمر انجليزى تحت ستار التوحيد الدينى . شطروا وطنى وأهلى شطرين . شطر فى الهنـــــد وآخر فى باكستان . وحدثت أكبر هجرة واكبر مذبحة فى التاريخ فرض على الهنود المسلمين ان يهاجروا الى الهند . وفى الطريق ذبح الالاف من الفريقين وكل فريق يدافع عن آلهته . لو لم يكن هناك آلهة لخلقها الاســـــــتعمار الانجليزى ليمزق الشعب الهندى .

ولاحت لى بيروت والمذابح الطائفيـــــة . وتذكرت كلمات « ماريون » صـــــديقتى الامريكية : عندنا فى الجامعات واجهزة المخابرات أقســــام تبحث وسائل استخدام الاديان والاقليات لخلق الفتن الطائفية وتقسيم البلاد على اساس اختلاف الدين والالهة .

- تصاعد الدم فى وجه الرجل الانجليزى العجوز صاحب شركة الشاى الهندى وصاح مدافعا عن قدسية الالهة وهو يرشف الخمر المعتق من كأس بللورى وينفث دخان سيجاره الهافانى فى وجوه الاخرين . وانتقل من الدفاع عن الاله شيفا وفيشنو الى اتهام انديرا غاندى التى عصت الالهة وظلت تعيش بعد موت زوجها . وياليتها تعيش فحسب ، ولكنها تحتكر السلطة ، وتصادر حرية الشعب الهندى .

وظهرت على علامات الدهشة . وحملقت فى عينيه الزرقاوين الضيقتين كالمأخوذة وتساءلت :

يبدو أنك شديد التدين وشديد الحرص على حرية الشعب الهندى !

وحملق بدوره فى وجهى ثم قال بصوت الالهة :

نعم . نحن فى انجلترا متدينون ونحترم كل الاديان ونحرص على الديموقراطية لكل الشعوب ، وخاصة الشعب الهندى الذى يربطنا به تاريخ عريق وصداقة قديمة .

وقالت أمريتا بهدوء : نعم صداقة قديمة وتاريخ عريق مقدس بدماء الشهداء الطاهرة . ورفع صاحب شركة الشاى الهندى صوته الانجليزى قائلا :

نعم ، فلنصلى جميعا على روح الشهداء المجهولين وندعو لهم بالرحمة والغفران ودخول الجنة آمين . ثم قذف فى جوفه بقية « الويسكى » .

***

- مدينة العبادة والدعارة

الطائرة تحلق فى سماء تايلاند . انوار بانجوك تبدو تحت الجناح الفولاذى الضخم كالاف الفصوص

في عناقيد من اللؤلؤ . صوت المضيفة ينبه الى ربط الاحزمة واطفاء السجائر استعدادا للهبوط . عجلات الطائرة تلامس الارض بخفة كأنما تنزلق فوق الماء . موسيقى راقصة تنبعث من سقف الطائرة .

اهز راسي مع اللحن . رجل عجوز يرمقني بعينين رماديتين من تحت النظارة .

السلم الآلي يقترب ببطء من باب الطائرة . أمد قدمي واهبط الى الارض بخطوات سريعة . مطار بانكوك فسيح حديث . يشبه أي مطار في أوروبا أو أمريكا . سيارة بيضاء عليها لافتة الامم المتحدة تنتظر زوجي . سائق تايلاندي قصير مربع الجسم عيناه شريطان رفيعان كعيون الصينيين . يفتح لنا باب السيارة بانحناءة ظهر وانكسارة قلب .

هذه الانحناءة رايتها منتشرة في البلاد الآسيوية . ما ان تقترب من رجل أو امرأة حتى ينثنى الظهر بتلك الحركة . هل عانت البلاد الاسيوية من قهر أشد مما عانته البلاد الاخرى في افريقيا أو أمريكا الجنوبية أو المنطقة العربية ؟ حتى في جزيرة زنزبار ، مهد العبودية والعبيد لم أر الظهور تنحنى بهذا الشكل . بل العكس . رايت ظهر الرجل الافريقي الاسود مشدودا ممدودا الى أعلى . وراسه ايضا شامخ الى أعلى وان كان انفه افطس . والمرأة الافريقية ايضا رأيتها فارعة القامة مفرودة الظهر ، ممدودة الراس الى أعلى .

المح وجه السائق من الجانب . ملامحه تنفرني من بانجوك قبل أن أراها . منكسرة كظهره . وانكسارة الجفون فوق العيون الضيقة الشريطية . عينان زجاجيتان شاخصتان الى الامام ومن حين الى حين تختلسان نظرة

من خلال المرآة الصغيرة الينا ونحن جالسون على الاريكة الخلفية .

شفتاه المطبقتان انفرجتا فجاة وقال بالانجليزية بلهجة امريكية : بانجوك اصبحت قطعة من امريكا ، وعندنا خبراء امريكيون في كل مكان .

واشار باصبعه خارج نافذة السيارة نحو طائرات ضخمة راقدة على ارض المطار من بعيد : طائرات حربية امريكية عظيمة !

وهز راسه بزهو متسائلا : انتما من امريكا ؟

وقلت : لا .

وتدلت شفته السفلى فوق ذقنه بحركة تنم عن خيبة الظن لكنه رفعها بسرعة واطبقها على الشفة العليا ثم تساءل بصوت خرج من فتحتى انفه : ومن اين انتما ؟

ورد زوجي : نحن من مصر .

وهنا تحول نصف وجهه الاسفل الى شفتين ممطوطتين وانشغل فجاة بشيء أهم من وجودنا .

ثم تساءل دون أن ينظر الينا من خلال المرآة :

— هل عندكم امريكيون كثيرون مثلنا ؟

وقلت : لا .

وقال : وماذا عندكم ؟

قلت : عندنا مصريون .

وارتفع حاجباه في اندهاش ثم هبطا بسرعة كأنما اكتشف فجاة أن الامر لا يدعو الى الاندهاش . واطبق شفتيه في صمت ، لكنه عاد يرمقنا من حين الى حين في المرآة أمامه وكأنما هبطنا عليه من كوكب آخر او من فصيلة غريبة من البشر .

اوقف السيارة أمام الفندق . يشبه الهيلتون او

الشيراتون في اي عاصمه في العالم . فندق بلا هويه وبلا شخصية وبلا ملامح كالقرش الممسوح . ووجوه الناس داخله ممسوحة . والغرف والممرات ممسوحة . وقررنا أن نغادر الفندق في الصباح الباكر . وما أن اشرقت الشمس حتى غادرنا الفندق بعد ان اصبحت جيوبنا ايضا ممسوحة .

على الباب الخارجى للفندق اقترب من زوجى رجل قصير مربع الراس مشروط العينين يشبه سائق الامس همس فى أذن زوجى بشىء لم اسمعه . لكنى رايت زوجى يطرده بيده قائلا : لا اشكرك !

ولم ينطرد الرجل . ظل يلاحق زوجى .

وسالت : ماذا يقول لك هذا الرجل ؟

قال : يقول ان عنده لى امراة جميلة هذه الليلة !

وحين اقترب الرجل مرة اخرى قلت له : واليس عندك لى رجل جميل الليلة ؟!

جحظت عيناه الشريطيتان فى اندهاش اشبه بالذعر ثم أطلق ساقيه للريح .

« بوذا » معبود الناس هنا يتربع على تمثال من البرونز ومن فوق رأسه ثعبان . والثعبان فى البوذية يرمز الى الحماية والماء « اى الخير » .

« الاله شيفا » معبود الهنود لا يؤمن به هنا الا القليل . « ٧٪ فقط من السكان » . يتربع هو الآخر على تمثال حجرى على شكل عضو الذكر الضخم . تحوطه النساء العقيمات هندوكيات وبوذيات . فالمرأة البوذية العقيم تؤمن باى اله قادر على اخصابها . ولا يهمها ان يكون « بوذا » او « شيفا » أو حتى الاله الطفل « جانيش » ذو راس الفيل .

ويهز الكاهن البوذي راسه قائلا . نعم الراس » يهم في عملية الاخصاب .

وجوه النساء العاقرات شاحبة رمادية بلون القماش الدمور . العيون مسحوبة الي أعلي نحو الاله . والايادي المشققة مرفوعة والشفاه مفتوحة تلهث بكلمات لا أفهمها.

وسألت الكاهن : أهو دعاء للاله ؟

وحملق الكاهن في وجهي بعينين ضيقتين وقال : أي اله ؟ ليس عندنا آلهة كالهندوكيين .

« بوذا » ليس الها . انه انسان مقدس ووصاياه مقدسة لكنه لم يقل عن نفسه أنه اله .

***

اليوم الاحد ، يوم السوق في بانجوك . الدكاكين الصغيرة كآلاف العلب المربعة علي جانبي الطريق . آلاف السياح الاجانب يتزاحمون علي شراء الحرير التايلاندي اجود حرير وارخص حرير . الايدي العاملة في مصانع الحرير لا تزال رخيصة . آلاف الفتيات الفقيرات يقفن امام الالات ست عشرة ساعة في اليوم « من ٦ صباحا الي ١٠ مساء » واجر الفتاة في اليوم دولارين ونصف . وفي الشهر خمسة وسبعون دولارا ، وفي السنة تسعمائة دولار .

ما تحصل عليه فتاة المصنع في العام يساوي ما تحصل عليه فتاة الليل في الاسبوع أو نصف الاسبوع واحيانا في الليلة الواحدة .

لكن فتاة الليل هنا لا تسمى فتاة ليل . وبيوت البغاء هنا لا تسمى بيوت بغاء .

يسمونها بيوت « التدليك » . وهي بيوت محترمة لا تقل احتراما عن معاهد العلاج الطبيعي وعيادات

الاطباء . بل انها اكثر اهمية من كل هذه المعاهد او العبادات . واكثر منها عددا .

ولا شيء في بانجوك يساوي بيوت الدعارة في الاهمية والعدد الا بيوت العبادة . والى جوار كل معبد لابد وان تقرا تلك اللافتة المكتوبة بالخط العريض : بيت التدليك .

وتتنافس بيوت التدليك على جذب السياح الاجانب اليها . وتشجعها الدولة فهى تسعى الى انعاش الثروة القومية بالعملات الصعبة . وهذا واجب وطنى ، وهز الخبير الاقتصادى راسه : نعم ، الفضيلة ايضا تعيش هناك .

لكن المشكلة « كما قال لى احد خبراء التدليك » ان بيوت التدليل يزداد عددها بمعدل أكبر من زيادة عدد السياح الاجانب . حتى اصبح عددها أكثر من عدد السياح . وزادت حدة التنافس بينها على نحو عجيب . اذ يستاجر كل بيت من هذه البيوت عددا من الرجال يطلق عليهم اسم « المرشدين السياحيين » ومهمتهم بالتحديد هى : اصطياد الرجال السياح فى الفنادق او خطفهم من الشوارع !

كنت أراهم واقفين امام ابواب الفنادق ، وعند نواصى الشوارع . عيونهم الشريطية تتحرك بسرعة فى كل اتجاه . وما أن يظهر سائح اجنبى حتى ينقضون عليه :

عندى لك امراة جميلة الليلة ـ اسعارنا ارخص الاسعار ـ الخدمة تشمل كل شيء ـ تدليك عضلات البطن والفخذين والساقين وما بين الساقين وطرقعة مفاصل الاصابع ..

ـ عندنا أجمل نساء تايلاند وأجمل نساء العالم . عندنا تعدد الجنسيات . ومن جميع المقاسات وعندنا أيضا فتيات عذراوات لمن يعشق أن يكون الاول .

***

الرغبة في المعرفة أو الرغبة في الاستطلاع سيطرت علي . أريد أن أرى بيتا من هذه البيوت من الداخل ؟ لكن المرأة ممنوعة من الدخول . الا اذا كانت عاملة داخل البيت . دورها هو تقديم الخدمة ، أو الانتاج فحسب . أما الاستهلاك فهو حق الرجل وحده .

وارتديت زى رجل ودخلت . اصرار على المعرفة وهتك ستار المجهول .

الظهور تنحنى أمامى في خشوع . والعيون الشريطية ترمقنى باحترام بالغ . لاول مرة أدرك معنى أن يكون الانسان رجلا . أن أى حركة يمكن أن تتحول الى شرف عظيم وان كانت حركة الساقين في الطريق الى وكر دعارة .

ورفعت راسي في زهو وتصورت انني رجل .

ثم وجدتنى أقف بين صفوف من الرجال ذوى الوجوه البيضاء المشربة بالحمرة . أكتافنا العريضة متلاصقة . أقدامنا متلامسة . عيوننا شاخصة الى الامام .

صفوف من الفتيات الجالسات أمامنا خلف لوح من الزجاج الحيوانات الصغيرة الحبيسة داخل قفص من الزجاج كالسلع المعروضة وراء نوافذ المحلات . نراهم دون أن يروننا . السيقان عارية بيضاء . والنهود نافرة يعلوها رقم كأرقام المساجين في القفص . عيون الرجال تتسع بالحملقة ، تثبت فوق النهد أو الساق

او الفخذ . ثم تجرى كقطع الزجاج فوق البشرة الناعمة البيضاء بلون الطباشير . كوجوه العرائس من الجبس الابيض . وعلى كل خد دائرة حمراء كاللطمة . يرتفع الجفن لحظة وتطل النظرة خلسة . نظرة مملوءة بالفراغ يشبه الحزن . أو بالحزن يشبه الفراغ . ثم تختفي النظرة بسرعة . ينكسر الجفن وينكسر العين وتطرق الراس حتى تلامس الذقن طرف النهد . وتنغلق العينان تماما بما يشبه النوم أو الملل أو الارهاق .

أجسامهن نحيلة صغيرة كاجسام الاطفال . واجسام الرجال كبيرة ضخمة كالخراتيت أو الديناصورات . وعيونهم مفتوحة محملقة أو مبحلقة . مملوءة باليقظة والانتباه والدقة . تفحص الراس والانف والشفتين . ثم تهبط الى العنق والنهدين . ثم البطن والفخذين . ثم الساقين والقدمين .

اقدامهن صغيرة دقيقة كأقدام العصافير . هل وضعوا القدم منذ الطفولة فى الحذاء الحديدى مثل اهل الصين ؟

رايت رجلا طويلا يرفع يده فجاة ويشير باصبعه الى الرقم المثبت فوق صدر احدى الفتيات . الى جوار الرقم كان السعر ايضا على شكل رقم ثان ، انتفضت كالفراشة يلمسها الضوء وسارت على أطراف اصابعها نحو ممر طويل فى نهايته باب مغلق . فتحت الباب ودخلت ودخل وراءها . ثم اغلق الباب .

وقفت حائرة مترددة . هل ارفع يدى واشير أم لا ارفع يدى . وربما تحركت يدى بسبب التردد باشارة لفتت الانظار . فاقترب منى أحد الرجال منحنيا وفى

عينيه نظرة احترام بالغة : — أى خدمة ؟ هل تريد شيئا ياسيدى ؟
وقلت : لا . شكرا .
ونسيت ان صوتى لم يكن صوت رجل . وجحظت عينا الرجل بدهشة ، وتسربت منهما بسرعة نظرة الاحترام . واخذنى الى مدير ادارة البيت .
جسمه النحيل الصغير يطل من خلف مكتب ضخم . عيناه مثل أهل تايلاند شريطان رفيعان مسحوبان الى اعلى .
رمقنى بدهشة وقال : ربما اخطأت الطريق ودخلت الى هنا بسبب الخطأ ليس الا .
وقلت : لا . جئت لاشباع رغبة الاستطلاع .
وصعد الدم الى وجهه وخبط بقبضة يده على مكتبه غاضبا : اشباع رغبة الاستطلاع ؟! الا تعرفين أن رغبة الاستطلاع لا تساوى شخصا محترما ؟ وهذا المكان محترم « وخبط بيده على المكتب » نعم محترم وليس فيه مكان لاشباع الرغبات غير المحترمة .
وقلت : ربما تكون الرغبة الجنسية عند الرجل أكثر احتراما من رغبة الاستطلاع عند المرأة لكن الاله «شيفا» خلق الرغبات جميعا ومنها رغبة الاستطلاع !
وصاح الرجل : انا لا أؤمن بالاله « شيفا » ؟
وتساءلت : وبأى اله تؤمن ؟ بوذا أيضا احترم رغبة الاستطلاع بل انه لم يفرق بين رغبة الاستطلاع ورغبة المعرفة .
ورد الرجل بغضب : انا لست بوذيا ! انا يهودى وأؤمن بالتوراه .
حملقت فى عينيه الضيقتين بدهشة . كنت اظن أن

الديانة هنا اما بوذية او هندوكية فقط . وقال الرجل : أن حقى ان اطلب البوليس .
وابتسمت بسخرية : بالطبع ، هذا حقك ، فقد ضبطتني متلبسة بجريمة الرغبة الآثمة ، « الرغبة في المعرفة » ، وقد لعن الرب في التوراه حواء لانها اكلت من شجرة المعرفة .
وتظاهر بانه لم يسمع ما قلت وفكر لحظة . رايت « النني » الصغير في عينيه الشريطية الضيقة يدور حول نفسه عدة دورات كعين زجاجية فى آله الكترونية حاسبة . ثم توقف « النني » عن الدوران ورايته ينظر فى ساعته ثم يسجل على ورقة بضعة ارقام جمعها ثم كتب الرقم الكلي : سبعة عشر ونصف . وقال : يمكن أن تدفعي غرامة قدرها سبعة عشر ونصف دولار ونطلق سراحك .
وقلت بغضب : هذا ابتزاز !
وقال بهدوء شديد عجيب : هذا حقنا . لقد دخلت هنا لتحصلى على المعرفة . وهذه السبعة عشر ونصف دولار مقابل المعرفة التى حصلت عليها . انا لم أفتح هذا البيت ليدخل اليه الناس ويحصلون على ما يريدون بالمجان . لا شيء بالمجان فى هذا البيت .
ثم أن وقتى أيضا له ثمن وقد اخذت من وقتى الان تسع دقائق ونصف .
فكرت لحظة ، منطق هذا الرجل اليهودى سليم بلغة السوق والتجارة . وهو رجل سوق ، يبيع للرجال المحرومين الاشباع الجنسى بالدقيقة ، حسب اللوحة المعلقة امامى . تشبه اللوحة التى تعلق فى عيادات الاطباء ، ومعاهد العلاج الطبيعى والتدليك . واذا كان

ثمن اشباع الرغبة فى طرقعة أصابع القدم دولار ونصف فى الدقيقة فما بال اشباع الرغبة فى المعرفة ؟ واذا كان يريد منى سبعة عشر دولارا ونصف نظير تسع دقائق ونصف ، فانه قد حسب الدقيقة بحوالى دولار ونصف. اى بثمن طرقعة اصابع القدم .

وقلت لنفسى : على اى حال ، من صالحى الآن ان يكون ثمن « المعرفة » بخسا .

وكنت على وشك أن أدفع المبلغ بشعور المنتصر لولا اننى تذكرت أن هذا البيت يدار للبغاء تحت اسم التدليك ، وأن هذا الرجل يشغل الفتيات الفقيرات ليربح اموالا من ورائهن ووجدتنى أقول بغضب : لن أدفع مليما واحدا ، وأنا التى سآخذك الآن الى البوليس فهذا بيت للدعارة وليس للتدليك !

لم يكن القانون فى بانجوك يضع حدا فاصلا بين تدليك بطن الرجل واشباع رغبته الجنسية . الا ان الرجل بدأ يتراجع . وقال : نحن لا نفعل شيئا ضد القانون .

وبدأ صوته ينخفض ، وظهره ينثنى ، وبانحناءة مؤدبة ودعنى حتى الباب .

***

وكان دخول المعبد اسهل بالنسبة لى من دخول بيت التدليك . والكهنة لا يمنعون أحدا من الدخول بشرط ان يدفع شيئا للالهة . طعام أو ملابس او نقود . فالآلهة هنا شانها شان البشر تحتاج الى نقود وطعام وملابس . صحيح أن كل هذه الاشياء تذهب فى النهاية الى الكهنة فى المعبد ، لكن الكهنة هم المندوبون عن الآلهة . وليس هناك من حد فاصل بين امسلاك

الكاهن وأملاك الاله .

رايت أمام المعبد كاهنا بوذيا حليق الراس ، يرتدى ثوبا طويلا أصفر ، ويرش الماء المقدس على الارض ، ثم يمد يده للناس قائلا : تبرعوا للالهة .

يده وهي ممدودة تشبه يد الشحاذين . وفى كل صباح باكر يخرج هؤلاء الكهنة البوذيون بأروابهم الصفراء ورءوسهم الحليقة وايديهم الممدودة يشحذون طعامهم من الناس .

لابد وأن تقابل كاهنا منهم اذا سرت فى اى شارع . يغيب الكاهن عن المعبد ثلاثة ايام أو أكثر فى رحلة للشحاذة ثم يعود الي المعبد ومعه خزين يكفيه اسبوعا او شهرا . فاذا ما نفد الخزين يخرج مرة أخرى فى رحلة جديدة لجلب الطعام .

ناولنى الكاهن ثمرة فاكهة يسمونها « دوريان » , وهى فاكهة تايلاند الشعبية .

قضمت عليها بأسناني . طعمها لذيذ كالتفاح . لكن رائحتها منفرة . وضعت المنديل على انفى وأنا آكلها .

وقال الكاهن : دعى الرائحة تدخل الى صدرك . انها مفيدة للصحة .

وقلت : انت كاهن تفهم فى الدين ، أما « الصحة » فهذا اختصاصي لاني طبيبة .

ورد الكاهن : وأنا أيضا طبيب .

واكتشفت أن هناك مدرسة طبية داخل المعبد . يتدرب فيها الكهنة على العلاج بالابر الصينية وبعض العلاجات الاخري الشعبية . ويسمونهم الاطباء الحفاة .

فى ركن المعبد رايت فجوة فى الارض على شكل حوض

لحفظ الماء المقدس . ماء غسل قدم بوذا . وقدما أيضا مطبوع على قطعة حجر . بعض النسوة يقبلن الحجر ، والكاهن يرش عليهن الماء المقدس وهو يتمتم : لتطهرن من الاثم !

حاول الكاهن أن يطهرني أيضا من الاثم ، ويرش على الماء المقدس . لكني رفضت . خشيت أن أصاب بأحد الامراض الجلدية . وقلت للكاهن :

لم ادخل الى المعبد من أجل التطهير .

وسألني بغضب : من أجل ماذا دخلت ؟

وقلت : مجرد الاستطلاع .

وصاح بغضب : هذا بيت عبادة محترم وليس فيه مكان للرغبات الآثمة .

وقلت بهدوء : « بوذا » لم يحرم الاستطلاع أو الرغبة في المعرفة .

وقال : اذن ادفعي لبوذا شيئا لانه أباح لنا المعرفة .

وأخرجت من جيبي بعض النقود وخرجت .

رحلة أفريقيا

رحلتى لافريقيا جاءت متأخرة . رايت اوربا وامريكا وآسيا قبل أن ارى أفريقيا ، مع أن قارتنا هى أفريقيا ، ونحن نعيش عليها ، وجذورنا ومنابع نيلنا تمتد من قلبها .

لكن عيوننا ووجوهنا كانت دائما تتجه نحو البحر الابيض واوربا وامريكا وظهورنا ناحية أفريقيا ، ناحية انفسنا . حينما يدير الانسان ظهره ناحية نفسه ، حينما يخجل الانسان من بشرته السمراء أو السوداء ويحاول أن يخفيها بمسحوق أبيض . كيف يعرف نفسه . كم اساء الاستعمار الاوربى للانسان الافريقى حين استنزف موارده وثرواته ، لكن الاساءة الكبرى كانت ذلك السهم الذى صوبه الرجل الابيض الى شخصية الانسان الافريقى ، فأصبحت افريقية وصمة عار وبشرته السوداء صك عبودية . وقد استغرقت رحلتى لافريقيا ثلاثة شهور الصيف عام ١٩٧٧ وهى مدة قصيرة لا تكفى للدخول فى قلب الانسان الافريقى ، لكنها كانت كافية على الاقل لان ادخل فى قلبى ، وأتعرف على نفسى وعلى كونى افريقية .

ان أول مظاهر افريقيتى هو لون بشرتى السمراء التى تتحول سريعا الى السواد بعد بضعة أيام تحت الشمس ، فاذا بى أسير فى شوارع الحبشة أو أوغنده فلا يكاد يلحظ أحد أننى غريبة . وأعترف بأن ذلك لم

يكن يبهجنى دائما . ففى أعماقى منذ الطفولة حنين لان اكون بيضاء مثل القشطة . مازلت أذكر رغم مـــرور السنين أننى منذ ولدت أدركت حقيقتين اثنتين لا شك فيهما ، أولهما أننى بنت ولست ولدا مثل أخى ، وثانيهما أن بشرتى سمراء وليست بيضاء مثل أمى . ومع هاتين الحقيقتين أدركت شيئا آخر أكثر أهمية . ذلك أن هاتين الصفتين وحدهما وبدون أى عيوب أخرى كافيتا للحكم على مستقبلى بالفشل . كان المؤهل الوحيد الذى يرشح البنت « فى ذلك الوقت » لمستقبل مضمون هو أن تكون جميلة ، أو على الاقل بيضاء البشرة مثل الاتراك . جدتى لامى ذات الاصل التركى كانت حين تدللنى تنـادينى « جارية ورور ... ومنذ تلك اللحظة رسخ فى ذهنى أن الجوارى والعبيد لهم بشرة من لون بشرتى ، واصبحت اخفيها بمسحوق أبيض ، واتصور أن حركة اخفاء بشرتى انما هى حركة نحو شىء أفضل . لكننى ومع كل ذلك كنت أدرك بجزء آخر عميق من عقلى أن لون بشرتى هو حقيقتى مثل كونى بنتا ، واننى أحب حقيقتى ، بل أن الحب الحقيقى الوحيد فى حياتى هــو حبى لنفسى الحقيقية . ورغم ذلك لم أتخلص من مسـاحيق وجهى تخلصا كاملا الا بعد أن أدركت قيمة عقلى ، فاذا بى أملك الشجاعة لمواجهة العالم بوجه مغسول نظيف .

كنت اجلس وسط النساء والرجال الافريقيين فى « دار السلام » ، بشرتهم سوداء كالبن المحـروق أو الكاكاو ، قامتهم طويلة ممشوقة ، حركتهم فى السير الطبيعى تشبه الرقص . عيونهم وهم يتحدثون تشـبه الغناء ، وغناؤهم للحب كغناؤهم للثورة وكلمة الحرية بلغة شرق افريقيا « السواهيلى » تشبه كلمتنا العربية

« الحرية » مع اختلاف بسيط فى النطق « أهرية » . اعجبني نطقهم وغنيت معهم « أهرية » وقالوا لي أنت افريقية مثلنا لكنهم مزقوا أفريقيا ، وفصلوا بين الشمال والجنوب فهذه افريقيا السوداء وهذا حوض البحر الابيض ، أو الشرق الاوسط ، كانما شمال أفريقيا ليس من افريقيا ، وكأنما هناك أفريقيا سوداء وأفريقيا بيضاء .

شعرت بالراحة معهم ، والتآلف مع نفسي ، ومع بشرتي السمراء . ان أجزاء نفسي الحقيقية تظهر وتملأني بالثقة والفخر ، فالرحلة الي أفريقيا أشبه ما تكون برحلة الي النفس ، الى أعماق النفس بقدر ماهي رحلة الى جذورنا ومنابع النيل .

احساس لم أدركه في رحلاتي الى أوروبا وامريكا او آسيا . احساس بعد أن عرفته ندمت لان رحلتي الى أفريقيا جاءت متأخرة ، لكنى كنت كالاخرين أحلم بالسفر الي اوربا او امريكا ولا اذكر انني حلمت مرة واحدة بالسفر الى أفريقيا ، تماما مثل القناع الذي كنت أرتديه فوق وجهي على شكل مسحوق ابيض .

احساس مريح بالتآلف مع نفسي ولون بشرتي السمراء تآلف لم أعرفه من قبل بهذا الوضوح . لا انسى في أول رحلة لي لامريكا سنة ١٩٦٥ انني توقفت أمام المرآة « في مدينة « رالي » بنورث كارولينا » قبل أن ادخل دورة المياه ، فقد قرأت على الباب لافتة كتب عليها : « خاص بذوي البشرة البيضاء » وعلى الباب الآخر كانت هناك لافتة اخرى كتب عليها : « خاص بذوى البشرة السوداء » . ذلك اليوم وقفت أمام المرآة متحيرة ، أى باب ادخل ، فلم يكن لون بشرتي ابيض او أسود وانما

هو لون متوسط بين البياض والسواد ، ولم أعرف الى أي عالم انا انتمي ، الى عالم البيض أو عالم السود .
وضحكت صديقتي التنزانية واسمها « باريز »وهي استاذة اقتصادية بجامعة « دار السلام » ، ولهاأربعة اطفال ، اثنان منهما حصلا على اسم الاب ، والاثنان الاخريان حصلا على اسم الام ، فالمرأة تعمل مثل الرجل وتنسب اطفالها اليها . وقالت لى « باريز ». درست فى انجلترا سنة ١٩٥٩ وكانوا يشعروننى بالنقص لانني سوداء ولانني امرأة الى حد انني اصبحت أخجل من نفسي ولكنني تغيرت كثيرا بعد ان درست الاقتصاد وعرفت كيف استعمرونا وخربوا اقتصادنا وخربوا نفوسنا . انى أعيش وأرى الاشتراكية تتحقق تدريجيا فى بلدى تنزانيا وادرك بمرور السنين الارتباط الوثيق بين العدالة الاقتصادية وبين حرية الرجال والنساء ، فى تراثنا الافريقى الاصيل نحن لا نفرق بين الرجل والمرأة ، هل تعرفين أن وزيرة العدل عندنا امرأة اسمها « مانبنج » ؟ هل هناك وزيرة للعدل فى أى بلد من تلك البلاد التى تسمى نفسها بالبلادالمتقدمة؟
وأعطتنى رقم تليفون وزيرة العدل فى بيتها ومكتبها، وقلت الافضل أن أكلمها فى المكتب لا البيت ، فقالت بدهشة وما الفرق ؟ وأدركت أن الناس فى افريقيا يتعاملون مع الوزراء والحكام كما يتعاملون مع الناس العاديين ، فلا أبواب ولا حجب ولا تشنجات . وتحدثت مع وزيرة العدل فى بيتها وسألتها « هل أنت وزيرة العدل حقا ؟ وضحكت مس « مانينج » وهى تقول عندنا النساء فى كلّ مجالٰ وعندنا وزيرات غيرى . قلت لها نحن عندنا وزيرة واحدة للشئون الاجتماعية أما

العدل فهذا لازال في بلدنا حكرا على الرجل وحده . تذكرت وانا أحادث وزيرة العدل الافريقية مقالا كنست قرأته في احدى الصحف المصرية العام الماضى يقول فيه كاتبه أن هناك شروط يجب أن تتوافر في الشخص الذى يتولى منصب القاضي وأول هذه الشروط هو « الذكورة » .

***

كنت اتلفت حولي وانا أتجول على شواطىء المحيط الهندي على ساحل شرق افريقيا في كينيا وتنزانيا وزنزبار وجزر القمر الكبرى ومدغشقر وادهش لهذا السحر الذى لم اره من قبل . جبال كينيا وقمة كليمانجارو الشاهقة في تنزانيا لا تقل روعة عن جبال الهيمالايا التى رايتها في نيبال . وجبال الحبشة الكثيفة الخضراء ، واوغنده تشبه الجنة الخضراء حول بحيرة فيكتوريا . هذا الجمال الذى رأيته في شرق افريقيا لم أره في سويسرا ، كثيرا ما سمعتهم يشيدون بجمالها ، ويتفاخرون بالسفر للمصيف في ربوع شطآن أوروبا ، مع أن شواطىء وجبال شرق أفريقيا اكثر جمالا وخضرة ، امتزاج الجبل بالماء بالخضرة الاستوائية الداكنة ، واشجار المانجو وجوز الهند ، ورائحة الزهور الاستوائية القوية ، وتلك البرودة المنعشة في الجو ، أكثر انعاشا من برودة صيف اوربا .

كنت اظن انني ساصطلى نارا في اغسطس وانا أتجول في أفريقيا تحت خط الاستواء ، لكنى وجدت أن الارتفاع عن سطح البحر آلاف الاقدام يحمى معظم هذه البلاد من الحرارة ، ويصبح الجو معتدلا أشبه ما يكون بجو الربيع في بلادنا مع بعض البرودة الخفيفة احيانا

اذا اشتد الارتفاع كما هو الحال في أديس ابابا او نيروبي .

السخونة في شرق افريقيا في الجو السياسي ، وهي سخونة طبيعية ، فالاستعباد الطويل يؤدي في النهاية الى ثورة ساخنة لها ايجابياتها ولها أيضا مخاطرها . حين قلت في القاهرة أنني ذاهبة الى أوغنده والحبشة وشرق افريقيا اتسعت العيون دهشة وحذرني الجميع ، فالثورة كانت مندلعة في كل مكان . لكنني صممت على الذهاب ، فأنا أحب أن أكون حيث يكون الانسان ثائرا وغاضبا . ان الغضب في رأيي هو الحالة النفسية المتلائمة مع هذا العصر . لا شيء يؤلمني أكثر من ابتسامة انسان مستعبد أو استكانة شعب مستعمر أو محكوم بأقلية جشعة . كما أنني منذ المدرسة الابتدائية وأنا أسمع عن بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل ، وعندي رغبة ملحة في البحث عن منابعي وجذوري . كان جدي لأبي اسمه « حبشي » وبعضهم قال لي انه كان أسمر وفيه دماء حبشية . وكانت أمي حين تغضب مني تقول انني ورثت بشرة أهل أبي . أليس من حقي بعد كل ذلك أن اعرف جذوري ومنابعي ، أما منابع النيل فقد وقفت في أوغندة مشدوهة أمام روعة الضفاف العالية الخضراء في « جنجا » بالقرب من « كمبالا » ، نقطة الالتحام بين النيل الابيض وبحيرة فيكتوريا ، وحيث أنشيء حديثا شلال « أول » الذي يعترض المياه المتدفقة بغزارة نحو النيل .

وقفت أتأمل عنق النهر الضيق عند نقطة الالتحام مع منبعه ، وارتفعت يدي دون وعي اتحسس عنقي ، واحساس له رهبة غريبة ورجفة ، ذلك أن هذا العنق الصغير الضيق هو شريان الدم في أرض جسدي . انه

عنقي ومع ذلك فهو ليس في جسدي ، وانما هو في جسد آخر ، أوغنده ، تموج بأعنف الهزات السياسية في عهد عيدى امين .

وعلى هضبة الحبشة العالية وفى أديس أبابا التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى سبعة آلاف قدم كانت الامطار تهطل طول النهار والليل ، وأدرك بحكم معلومات الابتدائية أن هذه الامطار تحمل الرى والطمى الينا فاغتبط لصوت الرعد واقول لنفسي : هذه المياه الغزيرة ستتدفق على أرض أهلي الفلاحين . وسمرة أهل الحبشة كسمرة اقاربى فى قريتى « كفر طحلة » ، وفيهم أيضا تلك الوداعة والهدوء رغم التقاطيع الحادة التى تنقلب بسرعة عند الغضب كما ينقلب الجو فجأة من شمس ساطعة الى برق ورعد ومطر . وفى أوغندة أيضا ترى الملامح فيها رقة وهدوء لكنها سرعان ما تتغير عند الغضب وتصبح حادة كالسيف أو كطلقة الرصاص .

وفى مطار « عنتيبى » حين هبطنا من الطائرة ادركنا اننا الوحيدون زوار أوغندة . كنا اربعة فقط « زوجى وابنتى وابنى وأنا » ونظر الينا عمال المطار فى دهشة واستطلاع ، فمن هؤلاء المغامرين القادمين الى أوغندة فى مثل هذه الفترة المتوترة ؟! ونصحنا المشرفون على فندق بحيرة فيكتوريا فى « عنتيبى » الا نغادر الفندق بعد غروب الشمس .

وفى دار السلام أيضا ، وفى نيروبى وجهوا الينا النصيحة نفسها : لا تسيروا فى الشارع بعد غروب الشمس . احساس دائم بالخطر لم أشعر به من قبل الا فى مدينة نيويورك . وبقدر مايكون النهار صاخبا مليئا بالشمس والحركة والحيوية بقدر مايصبح الليل مظلما

موحشا صامتا يوحى بالخطر . وفى مدينة « نيروبى » فى كينيا التى بنيت على أحدث طراز تبدو المدينة نشطة سابحة فى جو من المدنية الحديثة ، ولكن ما أن يجيش الليل حتى تخلو الشوارع الا من قراصنة الليل ، وفى « دار السلام » وقبل أن تغرب الشمس ترى شـــبان تنزانيا وشاباتها يتنزهون على شاطىء المحيط الهندى ، والصبية بأقدامهم السوداء الحافية يبيعون البيض المسلوق أو المانجو الخضراء . يجلس الصبى أمام المشترى ويقشر له البيضة ثم يشقها بملعقة صغيرة ويحشوها بالشطة . وكذلك المانجو الخضراء تقطع بالسكين وترش بالشطة . وفى المقاهى ترى النساء كالرجال جالسات فرادى أو مجموعات يشربن البيرة ويدخن ويتحدثن فى السياسة . لكن ما أن تغرب الشمس حتى تخلو الشوارع من الناس ويخيم على « دار السلام » الظلام والصمت الا تلك الاضواء الصغيرة المنبعثة من السفن الراسية فى الميناء . وقد تصحو فى منتصف الليل على صوت استغاثة مكتوم فتدرك أن أحد قراصنة الليل قد انقض على فريسة . ان الخطر هنا كأى خطر فى اى عاصمة أخرى مبعثه اللصوص وقطاع الطرق .

ويقولون عن « نيروبى » عاصمة كينيا أنهـا عـروس أفريقيا ، فهى مدينة بنيت على أحدث طراز ، الا أنها بدت لى كالعروس التى ترتدى فستانا جميلا من الخارج ، وملابسها الداخلية قبيحة . هذه الازدواجية رأيتها فى عواصم البلاد غير المتحررة ، أو التى تحررت ظاهـريا فقط . والعواصم التى تشبه « نيروبى » فى عالمنا الثالث كثيرة ، وتذكرت « بانكوك » عاصمة تايلاند : وانا اسير فى شوارع نيروبى « فالعمارات الحديثة هى العمارات ،

والسيارات الامريكية هى السيارات ، والشـــوارع الاسفلت العريضة هى الشوارع ، والنواصى التى تقف عليها المومسات هى النواصى ، وأفلام الجريمة والجنس الامريكية المعروضة فى دور السينما هى الافلام ، ومعظمها كتب عليها « ممنوع لاقل من ١٦ عاما » ، والاعلانات عن سجائر « كنت » وسيارات كاديلاك وسفن اب وكوكاكولا .

وتوقفت لحظة أمام احدى دور السينما أتأمل طوابير الشباب الافريقى . شباب أعزل تماما فى مواجهة هذا الخطر الزاحف ، هذا الطوفان من الفن الرخيص ، هـذا الغسيل المخى الردىء ، يتكرر كل يوم وكل ليلة ، ليس فى بلاد أفريقيا وآسيا فحسب ولكن فى بلادهم أيضـا فى أمريكا وأوربا . وقد رأيت طوابير الشباب أمام مثل هذه الافلام فى نيويورك ولندن وباريس . لكن الشـباب الغربى اكتسب نوعا من المناعة ضد هذا الخطر . وربمـا هو الارتفاع النسبى فى مستوى الحياة الثقـــافية والاقتصادية . أما شبابنا الافريقى فهم عزل ، ومامن سلاح يحميهم من هذا الوباء .

شاب أفريقى طويل يرتدى سلسلة حول عنقه ، وقميص ملون رسم عليه قلب وكلمة « أحب نيويورك » بالانجليزية ، يدخن سيجارة « كنت » ويمضغ لبانة ، واليتاه البارزتان تهتزان داخل بنطلون « جينز ضيق » .

رأيته قبيحا ، وأقبح منه مدينة « نيروبى » . وأدركت السبب الحقيقى وراء مانسميه قبحا . انه التناقض بين التأنق الخارجى والفساد الداخلى ، سواء فى الانسان أو فى المدينة .

***

ولم تكن رحلتى لافريقيا سياحيـــة ، فالســـياحة

كالتكنولوجيا حكر على ذوي البشرة البيضاء من سكان « العالم الاول » الذين استطاعوا بثرواتنا ان يجدوا من المال والفراغ مايساعدهم على التريض والمتعة والسياحة. أما نحن الذين أطلقوا علينا اسم « البلاد المتخلفة » فلم يخلفوا لنا الا الفقر أو الارهاق الجسدي سعيا وراء سد الرمق ، ولم يعد لنا من السياحة نصيب الا أن نكون « المناطق السياحية » التى يأتى اليها هؤلاء البيض ذوى الوجوه المتوردة والعيون الزرقاء اللامعة ، يأتون فى أجازاتهم للفرجة علينا بمثل ما يتفرجون على المتاحف وحدائق الحيوانات ، ويندهشون الدهشة نفسها لمنظر فقرائنا وشحاذينا .

لمحتنى امرأة عجوز « من هؤلاء الامريكيات السائحات المنتشرات فى افريقيا » وأنا أتابع حركات وجهها وهى تحملق بدهشة فى وجه امرأة شحاذة يحوطها عدد من الاطفال كالهياكل . ويبدو أننى حملقت طويلا اليها لاننى سمعتها تقول لزميلتها أو زوجها « الناس هنا غير متمدينين فهم يحملقون فى الناس بطريقة غريبة » . وكانت تظن أننى لم أفهم ماقالت فرددت بلغتها قائلة : « السياح هنا غير متمدينين فهم يحملقون فى الناس بطريقة غريبة ، الا اذا كانت هذه المرأة الشحاذة ليست من الناس فى نظرك ! » .

هؤلاء السياح كنت أراهم بالطوابير ، وعلى الاخص فى كينيا حيث لا تزال المنطقة مفتوحة للمستعمرين والسياح معا ، وكلهم من ذوى البشرة البيضاء ، نادرا ما كنت ألمح بينهم رجلا أسمر أو أسود ، فاذا به يسير بينهم كالغريب ، يخجل من غربته مع انه فوق أرضه ، ويتحرج من لون بشرته ، ويتعثر فى مشيته وكأنه فى مكان لا يحق

له أن يوجد فيه ، كأنما المتعة أو السياحة محرمة عليه ، أو كان مكانه الطبيعي ليس سائرا أو جالسا بين السياح ، وانما واقف بطرطوره الابيض وهم جالسون الى موائدهم ينتظر الاشارة منهم ليتقدم بانحناءة مؤدبة .

اكثر ما آلمني في رحلتي الى آسيا كانت انحناءة الرجل الهندي ، لكن انحناءة الرجل الافريقي آلمتني اكثر . فأنا افريقية بحكم الجغرافيا والتاريخ ، ويحزنني ان ارى واحدا من أهلي منحنيا لاحد . كما أن الرجل الافريقي طويل القامة قوى الجسد يكاد يكون عملاقا في احيان كثيرة ، وقد اغفر للقزم انحناءته لكن انحناءة العملاق تصيبني في الصميم .

لازلت اذكر التمثال الذي رأيته في معرض نيويورك الدولي سنة ١٩٦٥ . وقد رأيت في هذا المعرض الضخم مئات الاشياء العجيبة التي استوقفتني ، لكن الشيء الذي بقي في ذاكرتي من هذا المعرض حتى اليوم هو تمثال برونزي لرجل افريقي عريض الكتفين عملاق الجسد راسه منحني . ووقفت أمام هذه الانحناءة طويلا كأنما ارى لاول مرة انحناءة رجل ، وبدت القوة والذل في الجسد الواحد تناقض عميق مؤلم .

وعرفت وأنا أتأمل هذا التمثال لماذا كنت أحزن حين ازور حديقة الحيوانات وعلى الاخص بيت الاسد . كنت كلما ارى الاسد داخل القفص وتلتقي عينيه بعيني أشعر برجفة . ليس انبهارا بقوته وجبروته وانما بسبب الحزن الذي كنت أراه في عينيه . الحزن العميق ، الحزن الحقيقي الذي لا نراه في عيون الضعفاء وانما نراه في عيون الاقوياء حين يضعفون .

ولم اعرف حقيقة الحزن في عيني الاسد المحبوس

حتى رأيت اسدا حرا طليقا لاول مرة . كان ذلك في غابة « ميكومي » في تنزانيا ، وقد خرجت مع المرشد الى الغابة لاشاهد الحيوانات المتوحشة على الطبيعة . ذلك اليوم رأيت جميع الحيوانات الا الاسد ، وبدأت الشمس تغرب وبدأنا نعود وقد خاب أملي في رؤية الاسد . وفجأة سمعت المرشد يهتف : انظري ! وتجمد الدم في قلبي . كانت المرة الاولى في حياتي التي أرى فيها الاسد وجها لوجه دون قضبان حديدية . وهمس المرشد في أذني : لا تخافي ، فالاسد دائما هادىء لا يهاجم الا من يهاجمه . وهدأت بعد أن وجدت أن الاسد هادىء فعلا ، واستجمعت كل قوتي لانظر في عينيه . وشملني فرح غريب وانبهار يشبه فرح الاطفال حين يرون شيئا جديدا لاول مرة . والجديد الذي اكتشفته في لقائي مع الاسد الحر هو عيناه المليئتان بالقوة والثقة بالنفس الى حد الهدوء ، هدوء يشبه الرقة . هدوء القوي الذي يعرف أنه يستطيع أن يضرب من يضربه .

والانسان الحر كالاسد الحر ، شديد الهدوء الى حد الرقة ، لانه يعلم أنه يستطيع أن يضرب من يضربه .

***

ركبت الطائرة الصغيرة « فوكر فرنشيب » الالمانية . تشبه الاتوبيس القديم . مقاعد ممزقة ، وصوت محركاتها كموتور عربة عتيقة . خيل الى أنها ستسقط من الجو . انوار دار السلام تحت عيني ، والسفن في الميناء تتألق كالعرائس . هبطت الطائرة في جزيرة زنزبار بعد ٢٥ دقيقة فقط . الجزيرة مظلمة راقدة فيما يشبه السر المغلق المجهول . في المطار اعطوني ٤ أقراص كينين وقاية من الملاريا . قالوا أن الجزيرة موبوءة بالملاريا والفيلاريا

والدرن . أما مرضي الجزام فهم يعزلون في جزيرة اخرى قريبة اسمها جزيرة الموت .

حملقت في الظلمة وانا جالسة في التاكسي من المطار الى فندق « بوانا » . رائحة الهواء ثقيلة كالموت . فكرت في العودة الى المطار لكن الرغبة في المعرفة كانت أقوى . زنزبار جزيرة العبيد أدوس على ارضها ، وأشم رائحة الاستعباد كالموت ، لكنى أسير . في الفندق الضخم على الشاطىء انحنى الجرسون وحمل عنى حقيبتى . انحناءته تشبه انحناءة الجرسون في فندق أوبروى . وعرفت أن هذا الفندق هو أحد فروع فنادق أوبروى في افريقيا . في الصباح تمددت بجوار حمام السباحة . لم أجرؤ على النزول الى الماء . رائحة كالموت تفوح من قاع الحمام ومن كل أنحاء الحديقة . وهمس الجرسون في أذنى : حين حفرنا الارض لنقيم حمام السباحة عثرنا على آلاف الجماجم والهياكل البشرية . كانوا يقتلون الثوار ويدفنون جثثهم في هذا المكان قبل بناء الفندق .

نهضت فورا وحزمت حقيبتى . قررت الانتقال الى فندق آخر .

قال الجرسون : لا يوجد بالجزيرة الا هذا الفندق ، بقية الفنادق قديمة ومن الدرجة الثالثة ، ولا احد يذهب اليها خشية ناموس الملاريا والفيلاريا .

وقلت : الملاريا والفيلاريا افضل من البقـــاء في هذا الفندق .

انتقلت الى فندق صغير في زقاق ضيق ، اسمه فندق « افريقيا هاوس » يطل على المحيط . البيت من الطراز الافريقي الاسلامي ، أعمدة ضخمة قوية كسواعد الافارقة . الغرفة نظيفة والسرير تغطيه ملاءة بيضاء .

رائحة القرنفل تنبعث من كل مكان وتملأني بالإنتعاش ، وأصوات الغناء والطبول تملأ الجو بما يشبه الفرح ، أطفال يحملون الفوانيس الصغيرة ويسيرون في الشوارع يغنون لشهر رمضان . تذكرت أطفال قريتي على ضفاف النيل . المحلات الصغيرة على جانبي الشارع كمحلات الموسكي في القاهرة . ناولني طفل فرعا من شجرة القرنفل وصافحني وهو يقول : قريبو واجيني يانجو . ولم أفهم ماذا يقول . فتاة صغيرة تعرف العربية قالت لي : يقول لك مرحبا . الفتاة اسمها « هدى » ، وهي ابنة أحد المصريين الذين يعملون مع القنصل المصري . خرجت أمها من محل القرنفل وصافحتني . اسمها « أم علاء » . ليس لها ابن اسمه علاء ، لكن الجزيرة كلها من المسلمين ولهم عادات قديمة ، لا ينادون الام باسمها ، وانما باسم ابنها ، واذا لم يكن لها ابن خلقوا لها ابنا وهميا ، لمجرد أن تحمل اسمه .

أخذتني في سيارتها الصغيرة الصفراء الى بيتها . على الجدار صوره أهرامات الجيزه وأبو الهول ، وسجاده صلاة عليها صورة الكعبة . ملامحها مصرية صميمة ورأسها يشبه كليوباترا . عينان سوداوان تمتزج فيهما القوة بالحزن . قدمت لي صينية الشاي وكعك العيد الصغير وقالت : قرات كتبك وكنت أنوي الحضور الى عيادتك بالقاهرة .

وقلت : اغلقت عيادتي منذ سنتين .

وهتفت : لماذا ؟

وقلت : لم أسترح لفكرة أن أبيع الصحة للناس مقابل ثمن محدد .

وتنهدت : أنفقت كل ما معي على أطباء النفس في

القاهرة . أعاني يا دكتورة من حالة « اكتئاب » وامتلات ادراجي بالاقراص والحبوب المهدئة والمنومة . تركت عملي في القاهرة لاصحب زوجي فى حياته الدبلوماسية . عشرون عاما ونحن نسافر فى جميع أنحاء العالم من نيويورك الي زنزبار . « هدى » ابنتي تعيش وحدها في القاهرة طوال السنة ، ولا نراها الا فى الاجازة الصيفية . أبي مات وانا فى نيويورك ولم أره . وأمي ماتت العام الماضي وأنا هنا فى زنزبار . زوجى يعانى من الاكتئاب أيضا ، فهو يكره السادات ، ويعرف أنه لايعمل لصالح مصر ، لكنه يقول العكس كل يوم حسب وظيفته الدبلوماسية .

دخلت ابنتها« هدى » فى هذه اللحظة فسكتت«أم علاء» ثم غيرت الحديث وقالت : ماذا رأيت فى زنزبار ؟

وقلت : لا شيء حتى الان الا فندق « بوانا » ومن تحته الجماجم البشرية .

وضحكت أم علاء : سآخذك بسيارتى لترين متحف زنزبار وكان بيت العبيد .

ركبت الى جوارها فى السيارة الصغيرة . أصابعها الرفيعة حول عجلة القيادةهادئة مملوءة بالثقة ،وسمعتها تقول : قيادة السيارة تعيد الى الثقة بنفسى واشعر انني انسانة مستقلة . عشت حياتى ظلا لرجل هو زوجى ، وأما لابن وهمى يعيش فى الظل ، وخلقت لنفسى عالما اخر أحلم فيه بالحرية كالعبيد .

تجمع بعض الاطفال حول السيارة وجروا خلفنا كما يفعل أطفال القرى فى مصر . وجوه الاطفال نحيلة شاحبة كأطفال قريتى ، يغطيها الذباب . وقالت « أم علاء » : جزيرة زنزبار فيها ثراء كثير لانتاجها الوفير من القرنفل ،

لكن الناس هنا لا يجدون اللحم ولا الخضروات ولا حتى الماء . كل شيء يستورد من دار السلام . ضرورات الحياة غير موجودة فوق الجزيرة ، لكن التليفزيون الملون موجود، وكماليات اخرى مستوردة من اوربا وامريكا . الاطفال البنات يرتدين جلاليب طويلة ويغطين رءوسهن . البنت التى تسير فى الشارع بجلباب قصير وان كان عمرها عشر سنين فهى تعرض نفسها للحبس من ثلاثة أيام الى ستة شهور . صوت المؤذنين يرتفع من فوق المآذن وميكروفونات الاذاعة والتليفزيون الملون .

وصلنا الى ميدان صغير مربع اسمه ميدان العبيد ، تتوسطه كنيسة ضخمة تشبه كنائس العصور الوسطى ، ونوافذها ذات القضبان تذكرنى بمحاكم التفتيش . من خلف الكنيسة مبنى آخر ضخم كالقصر بنى على أعمدة تحوطه الاشجار . جدران القصر مسودة كآثار حريق قديم . كان السلطان يعيش فى هذا القصر عام ١٨٩٩ وسط مائة من نسائه « حريم السلطان » . وتآمرت النساء المائة ضد السلطان وحرقن القصر ثم هربن فى الزوارق الى المحيط . الى جوار القصر البرج المسمى بيت العجائب . رائحة القرنفل تعبىء الجو ، والساحل يمتد حتى الافق ، أشجار جوز الهند طويلة رفيعة ممتدة فى السماء ، وشجر المانجو أوراقه كثيفة خضراء ، يهزها الهواء القادم من المحيط . الصخور ترتفع فى المياه سوداء كرءوس العبيد تنكسر عليها الامواج . بيت العبيد كالصخرة المطلة على الزمن البعيد . والكهف الصخرى فى قاع البيت كان مخزنا للعبيد ، يخزنون فيه كما تخزن البضاعة ويعيشون شهورا داخل الكهف مع الثعابين . فى الميدان كانوا يسوقون الرجال والنساء بالسلاسل .

وفى المتحف الصغير رأينا السلاسل الحديدية من وراء الزجاج . فوق الحديد بقع سوداء كالدم القديم .

عدنا الى السيارة بقلب ثقيل . وفى بيتهـا على مائدة الغداء التقيت بزوجها المصرى ، ورجلين آخرين أحدهما موظف اسمه « محمود » يعمل فى السفارة المصرية في دار السلام . والثاني أحد الزعماء الوطنيين في زنزبار اسمه الشيخ على محسن . وجه قوى وحزين كالاسد الحبيس ، تمتزج فيه الملامح العربية والافريقية كما امتزج العرب والافارقة فى زنزبار منذ مئات السنين ، فلا تكاد تعرف الدم العربى من الدم الافريقى .

حارب الشيخ « على محسن » مع زملائه ضد الاستعمار الانجليزى ثم نالت زنزبار استقلالها السياسى وبدأت تسعى نحو الاستقلال الاقتصادي . وهنا ضرب الاستعمار ضربته متعاونا مع السلطة فى دار السلام . فالاستعمار لا يرى ضررا كبيرا فى ان تستقل البلاد الافريقية سياسيا مادام اقتصادها لازال يرتبط بالسوق الراسمالية ولايطيق ان تخرج بلد من قبضته الاقتصادية .

وكان فى استطاعة الشيخ « على محسن » والوطنيين فى زنزبار أن يواجهوا الضربة لو أنها حدثت فى النور . لكن مذبحة زنزبار حدثت فى الظلام ، قتل فيها الآلاف الرجال والنساء ودفنوا تحت الارض . وحبس على محسن وغيره من زملائه فى سجون دار السلام ، ومات منهم فى السجن من مات واستطاع « على محسن » أن يهرب وينجو بحياته .

أما دماء القتلى المدفونين تحت الارض فلا تزال تفوح وتملأ الجزيرة الحزينة برائحة خانقة غريبة تشبه رائحة جريمة لم يكشف النقاب عنها بعد .

وقال الشيخ على محسن : الانجليز يخشون زنزبار ، لان الثورة كامنة ، وقد تنتقل الى تنزانيا وبلاد افريقية اخرى . الاستعمار الانجليزى لازال يعمل في الخفاء في افريقيا ومعه أمريكا .

كانت « هدى » تحرك مفتاح « الراديو » الصغير باصابعها الرفيعة حين رن في الجو فجأة صوت مذيع يتحدث اللغة العربية ويقول : صرح الرئيس المصرى انور السادات فى واشنطن بأنه سيرسل جنوده لتحارب فى الصومال ضد الحبشة ، من أجل الدفاع عن منابع النيل . وضحك « محمود » المصرى وقال : وحين أرسل جنوده الى زائير كان يدافع عن ماذا ؟ ورد « أبو علاء » المصرى : يقول أنه رجل سلام ويرسل جنوده لتحارب فى أرض الغير ، وأرضه لا تزال محتلة باسرائيل . اصبح مندوبا لامريكا للدفاع عن مصالحها فى افريقيا ، ويعارض قرار ٤٩ دولة افريقية فى منظمة الوحدة الافريقية ويقف مع الحكومات المعادية لحركات التحرير . بعد أن كانت حجته الدفاع عن البحر الاحمر أصبح الآن يدافع عن منابع النيل .

وخيم على الجميع الصمت والوجوم . وانقطع صوت المذيع فى الراديو ، وبدأت موسيقى أمريكية وأغنية باللغة الإنجليزية تقول : دعنى يا حبيبى أقرر مصيرى .

وضحك الشيخ على محسن : دعونا يا انجليز نقرر مصيرنا .

وقال محمود : لم أكره فى حياتى مثل الانجليز . بريطانيا هى التى أنشأت اسرائيل بوعد بلفور ، لان فلسطين هى خط الدفاع الاستراتيجى لمصر ، ولكى تؤمن مصالحها فى قناة السويس . وأعلنت بريطانيا حمايتها لاوغنده عام

١٩٠٣ وعرضت على الحركة الصهيونية انشاء دولتهم هناك . اوغنده تسيطر على منطقة البحيرات في أعالي النيل ، وبها مصب بحيرة فيكتوريا . تمد البحيرات مصر بجزء من المياه « حوالي ١/٧ المياه الواردة اليها » لكن هذه المياه ترد الى مصر فى فترة التحاريق او فترة الجفاف التى كانت تسبق الفيضان السنوى حيث لا يكون مورد آخر للمياه . وفي عام ١٩٨٣ ذكر المهندس الفرنسي مسيو برنت أن اقامة خزان للمياه على مجرى النيل في اوغندة يعرض مصر لاشد الاخطار ، ويكفى للقضاء على مصر أن ينشأ سد على فوهة بحيرة فيانزا . اما اذا انشىء خزان على بحيرة فيكتوريا فيمكن اغراق مصر او منع المياه عنها تماما . وفى عام ١٩٠٢ جاءت الى مصر بعثة انجليزية صهيونية لتدرس مشروعا آخر هو اقامة الوطن الصهيونى فى سيناء . وبحثت البعثة امكانية توصيل مياه النيل الى سيناء عبر مواسير تمر تحت قناة السويس . كان يراس حكومة مصر مصطفى فهمى باشا وكان متعاونا مع الانجليز ، وبطرس غالى وزير خارجيته الذى رأس المحكمة التى اعدمت فلاحى دنشواى عام ١٩٠٦ ، وقد دافع عن الانجليز والصهيونيين رغم معارضة الشعب المصرى ، واغتاله احد المصريين الوطنيين لهذا السبب عام ١٩١٠ . وفشل الانجليز فى اقامة الوطن الصهيونى فى سيناء .

وقال ابو علاء : وهاهو السادات يحاول توصيل مياه نهر النيل الى اسرائيل عبر مواسير تحت قناة السويس .

ورد محمود : ولن تختلف نهايته عن بطرس غالى عام ١٩١٠ .

وخيم الوجوم والصمت الثقيل ، والهواء ايضا أصبح راكدا . سرت نحو النافذة المطلة على المحيط . جزيرة الموت تلوح من بعيد ، حيث يلقون عليها بمرضى الجزام لتأكلهم الضباع والثعابين . ومن بين الاشجار الكثيفة تلوح أعمدة القصر المحروق ، وفندق « بوانا » حيث دفن آلاف الثوار تحت حمام السباحة ، ثم ميدان العبيد حيث السلاسل والكهف داخل الصخور .

وفى الصباح الباكر حملت حقيبتى واتجهت الى المطار ركبت الطائرة الصغيرة العتيقة تشبه عربة نقل الموتى السوداء . صوت محركاتها يتحشرج وتنتفض فى الجو كالدجاجة المذبوحة ، وفى الجو يرن صوت المذيع فى الراديو مرة أخرى ويقول ان السادات سيوصل مياه نهر النيل الى اسرائيل ، ثم يرسل جنوده الى أفريقيا لتقاتل من أجل حصول مصر على مياه النيل .

***

من جزيرة الحزن والعبيد ركبت الطائرة الى دار السلام ، ومن دار السلام طرت الىجزيرة مدغشقر ؛ يسمونها جزيرة الابتسام . هبطت الطائرة فى منتصف الطريق فى جزيرة فى عرض المحيط اسمها جزيرة القمر الكبرى . قطعة من الارض الخضراء وسط المياه والامواج والصخور . الملامح مزيج من الدم العربى والافريقى . اللهجة غير مفهومة . مزيج من السواهيلى بالعربية ، ضوء القمر الابيض ينعكس على الجلاليب البيض . شيء من السحر يلف الجزيرة ، ومن وراء هذا الجمال غموض له رائحة مريبة كالنهريب .

ومن جزيرة القمر حملتنى الطائرة الى تناناريف عاصمة مدغشقر . يسمونها مدينة الالف محارب والالف بيت .

بيوتها صغيرة بيضاء ذات أسقف حمراء مقوسة ، بنيت على التلال وبدت متدرجة تغطى السفوح المنخفضة والتلال العالية . ملامح الناس اسيوية تشبه الاندونيسيين القامة القصيرة والانف المنخفض . حاربوا البرتغال والعرب والانجليز والفرنسيين ثم نالوا الاستقلال فى يونيو ١٩٦٠ والمرأة حاربت الى جوار الرجل ، وتعمل النساء فى كل مكان ، ولهن ما للرجال من حقوق .

النصب التذكارى ينتصب فى وسط البحيرة الكبيرة « أنوسى » . تحوط البحيرة الاشجار والبيوت الصغيرة البيضاء . شاب وشابة يسيران متعانقين على شاطىء البحيرة . يقود الشاطىء الى شارع كبير وسط المدينة اسمه شارع الاستقلال . فى نهاية الشارع سوق « الزوما » وكلمة « الزوما » ماخوذة من الكلمة العربية « الجمعة » دكاكين صغيرة ، وشماسى بيضاء من الزهور ، والفواكه . الاناناس . جوز الهند . الموز . البرتقال . مهرجان من الالوان ، والناس يرتدون قبعات كبيرة من الخوص والقش الملون ، يبتسمون ويتبادلون التحيات . منتجات من الفن المتقن الجميل . مزيج من الثقافات الاوربية والاسيوية والعربية .

فوق قمة الجبل العالى القلعة ، والنصب التذكارى « الروفا » ، والقصر الفضى ، وقصر الملكة « رانزوهيرنيا » وشجرة ضخمة اسمها « بيوباب » تأكل الاشجار من حولها ، ولها جذع ضخم سميك ، وليس لها اوراق . كانوا يعبدون هذه الشجرة ، لانها تأكل غيرها ، ويقولون ان الاله هو من ياكل الآخرين ، اى يسبب الموت للاخرين . وعبدوا حيوان اسمه « ليمور » على شكل سلحفاه تزحف وتاكل غيرها . والبقرة ايضا عبدوها

مثل الهنود ، وحين ادركوا انها ليست اله ذبحوها فى العيد ، واصبحت هى الضحية « زيبو » كخروف العيد عندنا . والبقره هنا لها صنم كالجمل . وفى زنزبار ايضا رايت هذا النوع من البقر . لكن الناس فى جزيره زنزبار يعيشون الفقر والحزن . وهنا يبدو الناس أكثر مرحا ، والطبيعة اكثر جمالا ، والمرأة كالرجل ، والفتيات يرقصن حول البحيرة رقصة الزهور ، يبتسمن واثوابهن ملونه بالوان الطيف . اذا كانت مدغشقر هى جزيرة الابتسام والمرح فان زنزبار جزيرة الحزن والعبيد .

***

فى متحف دار السلام رأيت أقدم جمجمة انسان فى التاريخ . اكتشفت الجمجمة فى منطقة « أولدوبى جورج » فى شمال تنزانيا . اكتشفها الدكتور « ليكى »، وقدر عمر الجمجمة بحوالى مليون سنة وسبعمائه وخمسين الف عام ، منذ عاش الانسان « زنجا تروبوس بواسى » .

فى الصباح زارتنى بالفندق صديقتى التانزانية « زين كامل » . أمها افريقية وابوها من الهند . يعيشان فى نيروبى حيث يملك أبوها ثلاث شركات تجارية كبيرة . هى تعيش فى دار السلام وتعمل فى وزارة الخارجية . ورثت عن أبيها الشعر الاسود الناعم ، وأخذت من أمها القوام الفارع المشوق .

ذهبنا الى شاطىء « باهورى » على المحيط الهندى . يشبه شواطىء أوربا . سبحنا فى المحيط وأكلنا السمك المشوى . قالت لى وهى راقدة فوق الرمل أنها لا تحب الحياة مع ابيها لانه راسمالى يتعاون مع الامريكيين وهى تؤمن بالاشتراكية ونيريرى .

وجلست فجاة وهي تقول بحماس : نيريرى يسعى لاستقلال تنزانيا الاقتصادي ويعارض سياسة أمريكا واسرائيل وتعاونهما مع حكومة جنوب افريقيا العنصرية

واشترت الجريدة من صبى يبيع الصحف على الشاطىء . مشكلة اللحم فى الصفحة الاولى . رأى يؤيد عودة اللحم الى تجار القطاع الخاص ، والرأى الآخر يعتبر ذلك عودة الى الرأسمالية ينادى بأن يظل بيع اللحوم فى نطاق القطاع العام ، منعا لزيادة أسعارها او اختفائها من السوق .

وتناقش الصحف أيضا مشكلة المعاش ، فالموظف يحال الى المعاش فى سن ٤٥ سنة كحد ادنى . لكن متوسط العمر اقل من ٤٥ عاما ، أى أن معظم الناس يموتون قبل أن يستمتعوا بالمعاش . ويسقط حق الموظف فى المعاش اذا حكم عليه فى قضية او دخل السجن .

نيريرى يصرح فى الصحف ان صورة أمريكا أصبحت قبيحة فى افريقيا ، لانها تساند الحكومات العنصرية ، وتمدهم بالسلاح والاموال ، وتشجع الحركات الدينية المتعصبة لاحداث فتن طائفية .

من غرفتى بالفندق كنت اسمع صوت المؤذن ، ومن المآذن ينطلق صوت الاذان فى شوارع دار السلام . وقالت لى زين : عندنا هنا حرية دينية ، مثل معظم البلاد فى افريقيا ، وبالامس اعتنق شاب تانزانى المسيحية وحضر تعميده ابوه وامه وهما مسلمان . لكن الرجال المسلمون هنا اكثر تخلفا من الرجال الآخرين ، والرجل منهم يطلق زوجته بلا سبب ويتزوج اربع نساء . والمرأة المسلمة يفرضون عليها الحجاب وعدم الخروج من البيت ، مع أن النساء هنا يعملن اكثر من

الرجال ، والمرأة في كثير من الاسر تنفق على أطفالهـا وتنسبهم اليها . وعندنا ١٩ امرأة فى البرلمان ووزيرتان، وزيرة للعدل ووزيرة للاسكان . عندنا يوم الفلاحين اسمه « نين نين » ، ومشاريع للتنمية الزراعية . خلال عامين من ١٩٧٤ الى ١٩٧٦ تم نقل ١٣ مليون فلاح وفـلاحة الى قرى جديدة . تنزانيا هى احدى دول المواجهـة ضد الاستعمار الجديد ، وكانت موطن العبيد . هـل رأيت ميناء « ·باجامويو » ؟

واخذتنى الى هذا الميناء . يبعد عن دار السلام ٤٥ ميلا ناحية الشمال . ميناء « باجامويو » كان هو المحط الاخير على الساحل الشرقى لافريقيا ، تقف عنده العربات التي تنقل العبيد من داخل افريقيا الى المركـب الذى ينقلهم الى جزيرة زنزبار ومنها الى بلاد بعيـدة مجهولة لا يعرفوها .

على الجدار حفرت كلمات تقول : « هنا اترك قلبى »

وقالت زين : كانت هذه هى الصرخة الاخـيرة التى يطلقها العبد قبل أن ينتزع من وطنه الى بلاد غريبة .

أقبل علينا بعض الصيادين . يتكلمون لغة السواهيلى التقط بعض كلمات تشبه العربية . أحسنت .. تفضلى ... أما كلمة « سوا سوا » فمناها « بخير » .

بعض المحلات بجوار المحيط ، وشباب يعملون بأيديهم تماثيل بديعة من الخشب والعاج . عيونهم تلمـع وأسنانهم تلمع وأمواج المحيط تضرب الشاطىء بهدوء . وعلى الجدار لا تزال الحروف محفورة : « هنــا اترك قلبى » ، يرمقونها فتكسو عيونهم سحابة الذكرى لماضى اليم .

فى الطريق الى غابة « ميكومى » رأيت جبـــل

كليمانجارو . قمته عالية ترتبط فى ذهنى بارنست هيمنجواى . كان صياداً يسير تحت الشمس ، ويكتب القصص .

أحلم ببيت صغير فوق الجبل اعيش فيه وحدى واكتب الرواية . منذ اعوام تؤرقنى الفكرة ، لكن الايام تمر ، والسفر يأكل العمر . لكنى منذ رأيت الاسد الحر فى الغابة وأنا مشدودة الى الغابة . وفى السيارة الجيب ركبت الى جوار المرشد أبحث عن الاسد . غربت الشمس ولم نعثر على الاسد . ورأينا اللبؤة فقط .

وقلت للمرشد : يبدو أن عدد الاناث أكثر من عدد الذكور فى الاسود .

وضحك قائلا : لا ، ولكن اللبؤة هى التى تخرج للاصطياد لاطعام أطفالها ، اما الاسد فهو لا يطعم الا نفسه ، الانانية صفة الذكور دائما ، والانثى أقوى من الذكر فى الحيوان . لا يستطيع الذكر أن يقترب من الانثى الا اذا أعطته الاشارة ، وهى لا تعطيه الاشارة الا فى أيام معينة فى فترة الحرارة . بقية الشهر أو العام تنشغل باطعام أطفالها ، وتضرب الذكور حتى لا يأكلوا صغارها . لم يحدث فى تاريخ الغابة كلها أن اغتصب ذكر الانثى من أى فصيلة . وهذا يعنى أن الاغتصاب ليس الا عملا من صنع الانسان .

وضحك المرشد مرة اخرى . بشرته سوداء بلون الفحم ، وأسنانه بيضاء . يتكلم بلغة انجليزية ، ويبدو انه ملم بطبائع الحيوانات والبشر . ثم حكى لى قصة الصياد ، قال : كان الصياد يسير تحت الشمس ، يرى ظله من وراءه طويلا أسود يتحرك معه ، واحيانا يتحرك وحده . وقال لنفسه : سبحان الله . وبدأ يخاف من

ظله حين يتبعه . يتصوره رجلا آخر يقتفى اثره ، وينتهز اى فرصة لاغتياله . واخيرا توقف حين رآه واستدار بسرعة وضربه على راسه بالبندقية . ثم حملق فى الجسد الميت تتدرج منه الدماء . لم يكن يشبه بنى آدم . صرخ: شيطان ! جره من قوائمه الاربعة الى بيته . شواه على النار وأكل لحمه بشهية ، ثم شعر بقوة سحرية فى بدنه. قال لنفسه : سبحان الله ، لابد انها القوة الالهية . اطفا النار ، وحوط الجسد بعيدان الذرة الجافة ، ودار حوله يرقص طربا محتفلا بالعيد الكبير ، وحوطه اخوته الذكور واكلوا جميعا حتى شبعوا ثم رقصوا على شكل حلقة ينشدون اغنيتهم المقدسة :

قتلنا الشيطان وأكلنا لحمه قبل أن يأكلنا .
لحمه مقدس نحبه ونخشاه
ونغني له في العيد لننسى اننا ذبحناه
لحمه للديك شهي نخفيه عن النساء
والا اكلوا منه وعشقوه مثلنا .

الامبراطور هيلاسلاسى والثـــــــــورة ..

منذ حكم السادات وانا اشعر بالغربة في وطني . احد عشر عاما كالسحابة السوداء ، من ١٩٧٠ حتى ١٩١٨ ، حجبت الشمس والضوء ونسمة الهواء . ولم يبق أمامنا الا وجهه ، وهل علينا كل يوم فوق الشاشات ، وعلى صفحات الصحف تدفعها اليد الخفية من تحت عصب الناب . وصوته كالرعد في مكبرات الصوت يدوى في الشوارع وكل الاذاعات .

احملق في الصورة المعلقة في الجو وفوق الجدران . ملامح الوجه فيها حركة غير مباشرة . لا تسير في خط مستقيم . وفي الصوت المطوط مايشبه الفهم المطىء أو الشرود والسرحان . والصق باسمه كلمة المؤمن ليستمد من الله السلطان كما فعل الامبراطور هيلاسلاسى . وكل اسبوع يصلى في جامع مثلما فعل شاه ايران . وسموه ايضا أبو العائلة المصرية . على غـرار أبو العائلة الايرانية .

وكلما أراه أو أسمعه اشعر بالغربة ، والاغتراب يصاحبه احساس آخر يشبه الانحدار أو السقوط في بئر مظلم تضيع فيه حقوق الانسان .

وانقلبت الاشياء في حياتنا ، فاصبح الخطر هو الامن ، والحرية هي الدكتاتورية ، وتحولت الاحكام العرفية الى الديموقراطية بفضل العلم والايمان . امـا

الغلاء الفاحش والديون والتضخم فقد أصبح لها اسم جديد هو الرخاء . والقواعد العسكرية وقوات الانتشار السريع أصبحت حمائم السلام . والغيرة على الاسلام في افغانستان لايوازيها الا الغيرة على مصالح فرنسا في تشاد ، والنضال الطويل ضد الاستعمار والصهيونية انقلب الى صداقة ومحبة وتعاون .

وبدأنا نرى البيرة والبيض الاسرائيلي في الدكاكين المصرية ، وانهمر سيل من الاعلانات الامريكية عن سجائر « كنت » وسفن آب وشويبس ورموش صناعية للنساء .

واختفت من الاسواق البضائع الوطنية حتى المكرونة المصرية والارز والخبز أصابها الاختفاء . وارتفعت نسبة البطالة بين الشباب ، والاصوات ارتفعت تنادي بعودة المرأة الى البيت وارتداء الحجاب .

واصبح كل شيء أجنبي أعلى قيمة من اي شيء مصري حتى الانسان . أصبح الاجانب يحظون أكثر من المصريين بالاحترام والاهتمام من جانب جميع المسئولين في الحكومة ابتداء من حراس الابواب حتى أكبر المديرين والوزراء ورئيس الدولة .. ويحصل الاجانب وخاصة الامريكيون منهم على امتيازات وتسهيلات لانشاء شركات الاستثمار ، أو لاجراء بحوث والحصول على بيانات ومعلومات لا يحصل عليها المصريون .

وكم هو احساس مرير أن يشعر الانسان بأنه غريب في وطنه ، وأن كل من ارتدى زيا أجنبيا أو رطن بلغة غير عربية نال الاحترام .

ولم يكن غريبا في ظل هذا الحكم أن أطرد من عملي ، وأن تصادر جميع كتاباتي ، وأن أعيش تجربة تشبه

المنفى ، ثم ينتهي الامر بى فى السجن .

وكلها تجارب مفيدة رغم كل شيء . اتاحت لي السفر والترحال ، ورؤية العوالم الاخرى . والعمل فى جهاز آخر عجيب يشبه الجهاز الحكومي في بلادنا واسمه هيئة الامم المتحدة .

واصبح لي لقب جديد هو « الخبيرة » ، وفي جيبي جواز سفر أزرق ، رسمت عليه الكرة الارضية ، ومن فوقها « الامم المتحدة » ، ومن تحتها : « دعه يمر » .

ومن جميع مطارات العالم أمر دون أن يستوقفني أحد . وفي نهاية كل شهر احصل على ثلاثة آلاف دولار غير نفقات السفر والاقامة اي مايوازى ثلاثين ضعفا لراتبي من الحكومة المصرية .

وكان مقري الاول هو اديس ابابا ، عاصمة اثيوبيا او الحبشة . بيني وبين كلمة الحبشة قرابة دم . واسم جدى لابى كان « حبشي » ، وعلى الجدار العالى فى بيت جدى لامي كانت تتدلى صورة الامبراطور هيلاسلاسي وخالتي بأنفها العالى تحكي أن جدها كان صديقا للامبراطور ، وبأصابعها المدببة ذات الاظافر المطلية تشد ورقة من قاع المكتب . ورقة بليتها السنون وظلت عليها كلمات مطبوعة تثبت أن الخديوى اسماعيل كان يستدين من جدها واستولى منه على قطعة أرض .

كنت لا ازال طفلة ولا اعرف الفرق بين الامبراطور والخديوي ، وحروف اسم هيلاسلاسي تحت صورته تبدو لعيني كالهيروغليفية . عيناه واسعتان في وجه طويل نحيل . وأنف مدبب حاد . ومن فوق صدره أشياء كثيرة مزركشة تقول عنها خالتي أنها نياشين واوسمة مثل نياشين واوسمة الملك فاروق . وحين سقط الملك فاروق

في يوليو ١٩٥٢ تصورت ان هيلاسلاسي ايضا سيسقط .
ولم أكن اعرف عن الحبشة شيئا الا أنها الهضبة العالية حيث تسقط الامطار وفيها منابع النيل . وفي عام ١٩٧٤ قرأت أن هيلاسلاسي سقط وتذكرت الملك فاروق ، وتصورت ان الحبشة تحررت . لكن السادات أعلن أن الشياطين الحمراء استولت على الحكم في الحبشة وأن سقوط هيلاسلاسي انما هو ضد ارادة الله ، لأن الله هو الذي اختاره ، وهو مستعد لان يمتطي سلاحه ويذهب الى الحبشة دفاعا عن ارادة الله ، وحماية أيضا لمنابع النيل من عبث الشياطين .

ولم أكن أصدق شيئا مما يقوله السادات . وهو نفسه لم يكن يصدق مايقول . ويدرك أن الناس لن تصدقه . ولذلك كان يلجأ الى الله دائما من أجل أن يصدقه الناس، كما فعل هيلاسلاسي .

الطائرة الاثيوبية قطعت المسافة بين القاهرة واديس أبابا في ثلاث ساعات ونصف . لم نحلق فوق أرض السودان . النميري منع هبوط الطائرات الاثيوبية في السودان او الطيران في سمائها ، وأعلن كالسادات الغضب على منجستو عدو الله وعدو هيلاسلاسي .

حلقنا فوق شاطيء البحر الاحمر ثم هبطنا في مطار اديس أبابا .

الشمس مشرقة ، برودة منعشة في الهواء والجبال الخضراء من كل ناحية . السماء زرقاء والجو صافي بلا غبار . ملامح الناس تشبه ملامح قدماء المصريين . الوجوه الطويلة النحيلة . العيون السوداء المسحوبة الى أعلى . وأنف كليوباترة المرتفع الحاد . وعنق نفرتيتي المصبوب فوق جسد نحيف طويل كالرمح . سمرة داكنة

كتربة الحبشة وجبالها السود . يذوب سوادها تحت سيول المطر كالذهب السائل . يتدحرج من فوق القمة الى السفح ويجرى غزيرا قويا يشق الارض ويلمع تحت اشعة الشمس كثعبان طويل من الفوسفور . يشبه نهر النيل . حفر الصحراء منذ ملايين السنين وصنع ذلك الوادى الطويل الاخضر .

هل سبح جدى « حبشى » مع مياه المطر الهابطة من الجبل الى الوادى حيث استقر فى الدلتا بقرية كفر طحلة ؟ وبقية أهله الاحباش بقوا فوق الجبل ولم يستعمرهم أحد واحتفظوا بملامحهم الاصيلة ، ملامح المصريين القدماء ، على حين فقدناها نحن المصريين ؟ هل اختلط الدم المصرى بالدم اليونانى والرومانى والتركى والعربى والفرنسى والانجليزى والامريكى ؟ بكل الدماء التى غزت مصر خلال القرون الماضية ؟ أم أنه الجبل الشامخ المرتفع ، يجعل الملامح شامخة مرتفعة . والوادى المنخفض الهابط نحو البحر صنع لنا ملامح اقل حدة واقل عنفا ؟

الدماء الحبشية فى جسدى تشدنى نحو الجبل ، وفى اعماقى عشق لقوة الجبل ، وانجذب نحو تلك الملامح الشامخة المنحوتة فى صخر . وكلما نظرت فى وجه طفل تذكرت طفولتى . كأنما ولدته هنا فى زمن لا أدرى عنه شيئا .

سرت فى شارع تشرشل ثم وجدت نفسى فى الميدان الكبير سموته ميدان الثورة . مهرجان شعبى كبير احتفالا بالثورة . آلاف الناس تتجمع . رجال ونساء واطفال . وجوه سمراء بلون الكاكاو . تقاطيع حادة كالسيف . جلاليب بيض وطرح بيضاء على الرأس .

ايادي سمراء تمسك بالاعلام الصغيرة الوانهـا ثلاثة : الاحمر والاخضر والاصفر . يغنون ويرقصون ويدقون الطبول . من فوق الرءوس ثلاثة وجوه ضخمة تتدلى كأنما من السماء . ماركس وانجلز ولينين . صـورهم الثلاثة بحجم الاهرامات معلقة فى الميدان . عيون الاحباش تتطلع نحوها ولا تعرف من هؤلاء الاجانب الثلاثة . بدأت مواكب الوزراء والسفراء ، ثم سيارة منجستو هايل مريام . سيارة لا ينفذ اليها الرصاص ، ولا احد يعرف فى اى سيارة هو . منذ ستة شهور ضربت سـيارته بالرصاص وأصبحت مخرمة كالمنخل . هـكذا سمعتهم يقولون .

بالليل اصحو على صوت طلقات الرصـاص . لانكاد نعرف من يضرب من ، وصديقتى الاثيوبية واسـمها « المظ » تخشى الحديث تتلفت حولها وتهمس بكلمـات مبتورة ؟

عندنا قرارات تفرض علينا الا نتحدث فى السياسة ، والا نزور الاجانب فى بيوتهم .

سافرت معها مرة الى مؤتمر نيروبى ، وما أن حلقت الطائرة فى الجو واجتازت حدود الحبشة حتى تنهدت وتنفست ثم قالت : كرهت هيلاسلاسى مثل كل أهـل الحبشة ، وكنا نأمل فى التغيير الى احسن ، ولـكن أصبحنا نخشى حتى الكلام ، ويتحدثون عن الماركسية اللينينية بلغة لا يفهمها احد من الشعب . اليـس فى تاريخنا ابطال وشخصيات وطنية مثل احمد عـرابى عندكم مثلا يعلقون صورهم فى الميدان بدلا من صـور ماركس وانجلز ولينين ؟ انا مع الاشتراكية لكنى ضـد النقل الاعمى عن الآخرين وتجاهل تاريخنا .

وقلت لها : حدثيني عن تاريخكم ، وكيف حدثت الثورة ضد الامبراطور هيلاسلاسي ؟ كل ما اعرفه عنه انه كان يحكم بقوة الله كالسادات عندنا فكيف نجحت الثورة ضده ؟

وحكت الى المظ قصة هيلاسلاسي الامبراطور . تشبه قصص الف ليلة وليلة . كان هيلاسلاسي رجلا صغير الجسم نحيفا . يقل وزنه عن خمسين كيلوجراما ، ومع ذلك حكم الحبشة أكثر من خمسين عاما من الحكم الدكتاتوري المطلق . كان يعتبر نفسه رئيس الكنيسة وأن الله هو الذي عينه في منصبه . لكنه لم يكن يعتمد في حكمه على الله وانما على جهاز مخابرات مدرب في أوربا وأمريكا ، وعلى تأييد هذه الدول له وقد استونى على الحكم عام ١٩١٦ حين دبر مؤامرة واطاح بالامبراطور السابق « بج ياسو » .

كان من الصعب على رجل صغير الحجم أن يكون كبير الهيبة في بلاد افريقية كالحبشة . يزهو فيها الرجال بقامتهم الفارعة وعضلاتهم القوية وملامحهم الجبلية . ودفع الكثير ليصبح شديد الهيبة رغم ضآلة حجمه . وتقمص شخصية العظماء . يرفع رأسه نحو السماء وفي عينيه نظرة باردة للكون والله والناس . البرود العاطفي صفة العظماء من الحكام والعواطف في الرجل نقطة ضعف فما بال الامبراطور . ويمتد البرود الى صوته أيضا ، ولهجته في الكلام . لا يمكن لاحد أن يستشف درجة انفعاله . وهو يختلف تماما عن السادات في هذه الصفة . فالسادات شديد العصبية ، لكن هيلاسلاسي يعتبر العصبية نوعا من كشف العواطف .

والمفروض ألا تكون عواطفه واضحة ، وكلامه أيضا غير

واضح ، ولا احد يعرف تماما ماذا يقول ، فهو لا يقول شيئا ، وانما يحرك شفتيه فقط كشفتي الاله ، بلا صوت وعلي رسوله أن يفهم الاشارة ، ثم يبلغ الرسالة الى الناس ، على شكل أوامر .

وكان رسوله يطلق عليه « الوزير ناقل الاوامر » .

وحين تدهورت الامور وانتشر الفساد وعمت المجاعة لم يتصور عامة الشعب أن الاله هو المسئول . فالمفروض أن الاله لا يخطيء ، وانما الخطأ يقع على ناقل الاوامر . وفي كل ازمة يصبح الوزير هو كبش الفداء ، يضحي به الامبراطور ليرضي الشعب ، ويعين وزيرا آخر أو وزارة جديدة . وهو هنا لا يختلف كثيرا عن السادات او اي حاكم آخر .

وكان هيلاسلاسي يعين جميع الموظفين في الدولة ابتداء من الوزراء حتي مديري المدارس ، والفنادق وحانات الخمور والبارات . ويصدر قرار التعيين شفهيا بحركة شفتيه ، فهو كالاله لا يمسك قلما ولا يكتب ولا يحب مثل السادات الجلوس على المكتب . وعلى الرسول أن يحول الامر الشفهي الى أمر مكتوب ، ومقدس .

ولا يصبح قرار التعيين نافذ المفعول الا بعد حلف اليمين أمام الامبراطور . وفي القصر قاعة خاصة لحلف اليمين يسمونها قاعة « الاستماع » ، حيث يقف الموظف المعين منحنيا أمام الامبراطور ويستمع الى قرار تعيينه . ثم يستمع الامبراطور بعد ذلك الى صوت الموظف أو الوزير يعلن الطاعة والولاء ويؤدي القسم أو حلف اليمين .

ولا يختلف حلف اليمين في الحبشة كثيرا عن حلف اليمين في بلادنا .

ومن قاعة الاستماع ينتقل الموظف الى قاعة اخرى

تسمى « غرفة الالقاب » ، حيث تصدر المنح الالهية بالالقاب والنياشين ، أو العكس ، أى تسقط اللعنات الالهية وتسحب الالقاب والنياشين .

وكان الوزراء يخافون من دخول « غرفة الالقاب » كما يخاف الاطفال دخول غرفة الفئران . ولم يكن لهم من وظيفة سوى ارضاء الامبراطور ودراسة سيكلوجيته .

وكان ارضاء هيلاسلاسى ، يتركز فى شىء واحد . اثبات الولاء له بحركات الجسم حين الوقوف أمامه . انحناءة الرأس مع انثناءة الركبة اليمنى ، والتمتمة ، ببعض آيات الحمد ، ثم التقهقر الى الوراء حتى الباب الخارجى دون الاستدارة حتى لا يصبح ظهر الواحد منهم فى وجه الامبراطور .

وكان الدخل القومى فى الامبراطورية يعتمد على الرشاوى أساسا ، وكل خطوة داخل أى مكتب حكومى لها رشوة معروفة . والامبراطور يعرف ذلك ، ويدرك أن الغاء نظام الرشوة يعرض الدولة للافلاس .

ولم يكن فى وسع الامبراطور أن يفعل شيئا تجاه هذا الفساد ، فهو جزء طبيعى من الحياة البشرية ، والا كان وجود الشيطان عبثا والله لم يخلق الشيطان عبثا ، بل جعل له وظيفة ، وهى الافساد .

رغم هذا الايمان الشديد بالله الا أن الامبراطور كان يخشى دائما من حدوث مؤامرة ضده وهو غائب عن الحبشة . وكان كثير السفر والترحال فى العالم الواسع ، يعشق أوروبا وامريكا ، وأوروبا وأمريكا تعشقه . لكنه أقسم أمام الشعب انه يعشق وطنه الحبشة ويدافع عنها ضد أى غزو من الخارج . وحين غزت ايطاليا الحبشة هرب الى انجلترا . ثم عاد بعد

ان استطاع بعض الضباط البواسل أن يطردوا الايطاليين وأطاح هيلاسلاسي بهؤلاء الضباط البواسل وسيطر على الحكم .

كان يعشق الرحلات وفي كل رحلة يأخذ معه جواهره وتاجه خشية أن يسرق فى غيابه ، ويأخذ معه أيضا رجاله المشكوك فيهم ، ويترك الموثوق فيهم .

ولم يكن أحد يفهم هذا التناقض . فالمفروض ان يصطحب الحاكم هؤلاء الذين يثق فيهم . لكن هيلاسلاسى كان يفعل العكس . يأخذ معه المشكوك فيهم حتى لايقوموا بمؤامرة ضده في غيابه . وبذلك حرم رجاله المخلصين من رحلاته الكثيرة المتعة . واستمتع المتآمرون ضده بالسفر والنزهات العالمية .

لكن عدد المتآمرين ضد هيلاسلاسى كان يتزايد على الدوام ، ولم يكن فى امكانه أن يأخذهم كلهم معه في رحلاته . وكان الفساد قد عم وانتشر السخط بين معظم طبقات الشعب ، الفلاحين والعمال والتجار والطلبة . وامتد السخط أيضا ليشمل رجال الجيش والبوليس ، بل الحرس الامبراطورى ذاته .

وكان هناك رجل جسور اسمه « منجستو جيرمام » كان رئيس الحرس الامبراطورى ، وقد استطاع مع رئيس البوليس الامبراطورى ورئيس جهاز الامن بالقصر ان يشكلوا « المجلس الثورى » من أربعة وعشرين ضابطا .

وفى رحلة للامبراطور الى البرازيل فى ديسمبر عام ١٩٦٠ قام المجلس الثورى بقيادة منجستو بعزل الامبراطور هيلاسلاسى ، وشكلت حكومة جديدة يرأسها ابن هيلاسلاسى الامير كاسا . وكان رئيس مجلس التاج، وأعضاؤه من الوزراء وأصحاب الاراضى الاثرياء . وكانت

هناك اشاعة بأن الامبراطور كان دائم الشك في نسب هذا الابن اليه ، وأن زوجته خانته مع رجل آخـــر ، وأنجبت « كاسا » .

كاد الانقلاب ينجح لولا أن أسلاك التليفون بين أديس أبابا والخارج لم تقطع ، واستطاع أعوان الامبراطـــور الاتصال به تليفونيا في البرازيل فعاد طائرا . واستطاع أن يجمع حوله بعض رجال الحرس . وكان هناك صراع بين رجال الجيش ورجال الحرس . وذهب منجســـتو يخطب في الجامعة ضد الامبراطور وطبقـــة الاثرياء الارستقراطيين . لكن جموع الفلاحين كانت لا تزال تؤمن بالاله هيلاسلاسي ، وتدافع عنه بالطوب والعصى ضد الشيطان . وانتصر هيلاسلاسي وأعوانه . وهربت الفرق الثائرة الى الغابات . وانطلق الرصـــاص في أثرهم ، وأقبلت الضباع والاسود الجائعة على صوت الرصاص واكلت منهم ما أكلت . والثعالب ايضا أكلت . وبلغ عدد الذين اكلوا عشرة آلاف رجل . واعتقل هيلاسلاسي من لم تأكله الضباع . وبلغ عدد المعتقلين خمسة آلاف . شنق منهم هيلاسلاسي من شنق ، وعلق رءوسهم على الابواب ، أما « منجستو » فقد تم اعدامه في الميـــدان العام .

وعاد هيلاسلاسي يحكم الحبشة بأمر الله ، وأعلن أن الله نصره على أعدائه ، وضاعف من عدد جهاز المخابرات كتدعيم لقوة الله وضاعف لهم المكافآت والامتيـــازات ، وتضاعف الفساد والرشاوى ، وأصبحت الطـــائرات الاثيوبيـــة تحلـــق في الجـــو ما بين باريس وأديس ابابا تحمل زجاجات الشمبانيا والكافيار للامبراطـــور وأعوانه . واكتظت شوارع اديس أبابا بالشحاذين العراة ودفعهم الجوع الى الهجرة من القرى الى المدينة بحثا

عن الطعام أو مهنة في الحلال أو الحرام . بعضهم لم يجد امامه الا الشحاذة . والبعض الآخر الاذكى أصبح نشالا أو قوادا . والبنات الصغيرات يبعن أجسادهن نظير سد الرمق . والمراة العجوز تفتح دكانا لبيع الكوكاكولا والسجائر ، وتخصص الغرفة الداخلية الدعارة وعلي كل ناصية شارع ترى دكاكين الدعارة ومن فوقها كتب : كوكاكولا .. ومن تحتها مومس حبشية .

وبدأ الفلاحون يموتون من الجوع ، ومواشيهم تموت من الجوع أيضا . ويدفن الفلاح الى جوار حماره في حفرة واحدة . وامتدت المجاعة الى الجنود أولاد الفلاحين . وبدأت جثث الجنود تظهر في بعض الشوارع . ولم يكن من حق الجندى في الحبشة أن يدفن حين يموت . كان هذا الحق قاصرا علي الضباط فقط .

وفي عام ١٩٧٣ شوهد الامبراطور هيلاسلاسي وهو يلعب الجمباز في حديقة القصر ويقدم الكافيار لكلبه في صحن من الفضة . وكانت رائحة الجثث قد بدأت تزكم الانوف ، والسخط امتد ليشمل معظم رجال الجيش والحرس الامبراطورى والطلبة والعمال والتجار والقوادين والمومسات .

وكان في قصر الامبراطور خادمة لها ابن ضابط في الجيش اسمه منجستو هايل مريام . وهجم رجال الجيش المتمردين بقيادة منجستو هايل مريام على مقر الحكومة ووضعوا الوزراء في السجون . وارتدى هيلاسلاسي الزى العسكرى وحمل عصاة المرشال وأعلن انه مع الضباط المتمردين .

ولم يبق خارج السجون من أعوان الامبراطور الا خادمه وكلبه الامين . وكف الامبراطور عن لعب الجمباز في

الحديقة ، فقد اختفى الحراس من حول القصر ، واصبح البقر يدخل الحديقة لياكل العشب .

كان العام هو ١٩٧٤ ، وقد استفاد منجستو الجديد من تجربة منجستو القديم عام ١٩٦٠ ، وقطع أسلاك التليفون داخل القصر فلم يعد يسمع الامبراطور رنين جرس التليفون . ولم يعد يفعل شيئا سوى ارتداء الزى العسكرى كل صباح ، والجلوس بجوار النافذة او الباب وقد يأخذه خادمه الى الكنيسة حيث يصلى ويقرأ كلام الله .

حتى جاء يوم ١١ سبتمبر ١٩٧٤ حين سمع الامبراطور أصوات المظاهرات فى الشارع تطلب شنقه ، ودخل اليه رجال الجيش ، وبعد أداء التحية العسكرية قرءوا عليه قرار خلعه عن العرش . ثم اركبوه احدى السيارات المصفحة . وتساءل الامبراطور فى هلع : الى اين تأخذونى ؟ وقالوا له : نأخذك الى مكان امين .

وكان المكان الامين هو السجن بلغة الاحباش ، واخذ منهم السادات هذا الاصطلاح . وفى السجن عاش هيلاسلاسى اثنى عشر شهرا ثم مات .

وقبض منجستو ورجاله على بعض أعوان الامبراطور . وبعضهم هرب خارج الحبشة . وبعضهم تنكر فى زى الرهبان فى الاديرة . وبعضهم فر الى الجبال ، ليعود من حين الى حين الى أديس أبابا ، يتخفى فى الليل ويطلق الرصاص على رجال الثورة .

وفى الليل نسمع سيارات الجيش وهى تجوب الشوارع فى اديس ابابا تبحث عن اعوان هيلاسلاسى ورجال الثورة المضادة ، وتدوى طلقات الرصاص فى الليل .

بيتى نوافذه عريضة من الزجاج . ارى الجبال الخضراء وانا راقدة فى سريرى . فى الصباح الباكر اخرج الى حمام السباحة فى فندق الهيلتون على الهضبة العالية فى مواجهة قصر هيلاسلاسى . مياه حمام ساخنة تتصاعد منها البخار . ورذاذ المطر يتساقط فوق راسى . أرى الشمس والقمر فى السماء ، ومدينة أديس أبابا لاتزال نائمة ، الا بعض الشباب يتدربون على السلاح . صفوف من الفتيات والفتيان يؤدون التدريبات الساعة السادسة صباحا . دقات كعوبهم فوق الاسفلت وأنفاسهم منتظمة متصلة كالنشيد الصامت . وفى الميدان الكبير ترتفع الصور الثلاثة ، ماركس وانجلز ولينين ، فى صدر كل منهم عدد من الرصاصات . بالامس سمعت الطلقات وأنا نائمة . وفى الصباح عرفت أن بعض أعوان هيلاسلاسى أطلقوا الرصاص على الصور الثلاثة فى منتصف الليل .

لازالت الصور معلقة على الاعمدة ، تقاوم الرصاص ، وسيول المطر ولهيب الشمس . رجل ولد منذ مائتين عام نطق باللغة الالمانية على بعد اربعة آلاف كيلومتر وصورته لا تزال فوق هذه الهضبة التى تنطق باللغة الامهرية فى وسط افريقيا ؟

مبنى الامم المتحدة يواجه الميدان ، ومكتبى فى اللجنة الاقتصادية الدور الثالث حيث قسم المرأة الافريقية . رئيس اللجنة له مساعد ، والمساعد له سكرتيرة أثيوبية ، وهو من شمال أوروبا . أبيض تشوبه حمرة كبشرة البرص . وهى سمراء كالكاكاو أو البن المحروق . شمال يحن الى جنوب . وتسرى الاشاعات فى المبنى الضخم عن قصص العشق بين السكرتيرات والمديرين . تبدأ القصة عادة فى رحلة الى مؤتمر ، وتنتهى فى رحلة

أخرى الى مؤتمر آخر . والتخطيط لعقد المؤتمـرات يبدأ مع بداية اللقاء في الربيع . ينعقد المؤتمر في أي مكان من العالم الا موطن المدير . فهناك زوجته وأولاده، ورصيده في البنك بالرقم السري الخطير .

منذ تخرجت واشتغلت وبيني وبين المديرين عداء . مفهومهم للادارة عجيب ، وعـلاقة الرئيس بالمرءوس كالسيد بالعبد . طاعة مطلقة للأوامر بغير مناقشـة . والرؤساء فى الحكومة المصرية فراعنة . لكنهم فى الامم المتحدة آلهة مقدسة . والمرءوس فى الحكومة اذا تمـرد وفصل فلن يخسر الا الملاليم . لكن الخسارة فى الامم المتحدة بالآلاف والملايين . لهذا يسود الهدوء المكاتب ، ويسيرون فوق الارض بخطى خفيفة حذرة . لا يدخلون الى حجرة الرئيس أو المدير الا بعد استئذان . واذا أذن لهم يطرقون الباب برقة بالغة ، واذا فتح الباب فـلا فلا يدخلون دفعة واحدة . وانما على أجزاء . الرأس أولا تطل من الباب بأدب ، ويتبعها الكتفان ثم الذراعان وبقية الجسم . والجزء الاخير الذى يدخـل هـو القدمان. تدلفان من الباب بهدوء شديد داخل حـذاء لامع مصقول .

وفى حفلات الكوكتيل تراهم يدورون حول النقطـة التى يقف فيها المدير . يلفون حوله من كل النواحى ، حتى تلتقى عيناه بعيونهم ، ويدرك وجـودهم ، فاذا بالشفاه تنفرج عن الابتسامة العريضة ، ويبدو الواحد منهم منفرج الأسارير مستريح البال وكأنه وقع باسمه في سجل التشريفات أو فى دفتر الحضور والانصراف .

وكان غيابى عن هذه الحفلات يسجل ضدى فى التقارير السرية . وفي يوم سألني المدير لماذا لا أحضر الحفلات ،

فالحفلات فى الامم المتحدة جزء من العمل . واندهشت .
لكن الجميع ايدوا كلام المدير واعتبروا غيابي عن الحفلات
نوعا من التقصير .

ولم يكن في مدينة أديس ابابا الكثير . مدينة تحاصرها
الجبال ، وقوات معادية من الشمال والجنوب . ولاشيء
يبدد سكون النهار الا رذاذ المطر أو انهمار السيول
أو صوت العربات الكبيرة تحمل الموظفين من اديس أبابا
الى القرى للاشتراك فى جمع المحاصيل ، وتسود
السيارات محملة بالفلاحين ليجندوا فى الحرب ، أو
يعملوا مع فرق الشعب المسلح لحماية المدينة أو تنظيم
طوابير السيارات أمام محطات البنزين كطوابير الناس
أمام المخابز فى بلادنا ودجاج الجمعيات التعاونية .

وفى الليل لا يقطع الصمت الا طلقات الرصاص ، أو
دقات الطبول . تذكرنى بدقات الطبول فى قريتى كفر
طحلة . الطريقة نفسها واللحن نفسه ، وايقاع الاقدام
الراقصة فوق الارض الحبشية هو نفسه الايقاع فى
وادى النيل . يصل الصوت الى أذنى وأنا نائمة فى
سريرى ، ويخيل الى أننى ولدت هنا منذ بعيد الزمان .
وأمام بيتى مبنى أبيض صغير له فناء كبير . يتجمع فيه
الرجال والنساء والاطفال . يدقون الطبول ويرقصون
طول الليل ويغنون . وفى الفجر يختفون . الا اذا كان
هناك مسيرة شعبية أو مهرجان . فاذا بالشوارع كلها
تمتلىء بالبشر . آلاف وآلاف . يحملون الرايات والاعلام .
ويهتفون باللغة الامهرية : تحيا العدالة والمساواة . تحيا
الحرية وكرامة الانسان . تسقط أمريكا واسرائيل .
بعض الشباب يحملون لافتة كبيرة كتب عليها : نؤيد
القضية الفلسطينية .

وجوه الشباب الحبشى كوجوه المصريين . سمراء دقيقة الملامح . وصوتهم وهم يهتفون بالامهرية كالاصوات العربية . وحين تلتقط أذانى كلمة « فلسطين » أحس الدقات تحت ضلوعى ، ودموع أبتلعها فى الصدر ، والجرح عميق ، الحاكم في بلادنا يعادي الواقفين معنا على طول الخط ، ويصادق الطاغين لنا فى الصدر وفي الظهر .

أصوات الفتيات الحبشيات كالغناء وهن يهتفن فى نفس واحد : فلسطين . يتقدمن على دقات الطبول ، والفتيات أيضا يهتفون . تمسك الفتاة بيد الفتى ويتقمصان . الصفوف وراء الصفوف رجال ونساء وأطفال . لا حاجز بينهم ولا حجاب . والفتاة ترفع راسها الى أعلى فى شموخ .

تذكرت الامس القريب ، حين كنت فى أجازة بالقاهرة لمدة أسبوع ونظمت الحكومة مظاهرة من الموظفين تأييدا لزيارة السادات لاسرائيل ، وصدرت الاوامر من الوزارات بخروج المظاهرة فى يومين منفصلين : يوم للنساء ، ويوم للرجال . ورأيت الموظفات فى اليوم المخصص لهن يسرن فى الشوارع بكعوب عالية ، ورءوس منخفضة ، وعيون مطرقة الى الارض ، وحجاب أسود او أبيض يغطى بعض الرءوس . وفى يوم الرجال رأيت الموظفين يسيرون في صف منتظم ، أيديهم خلفظهورهم كالمقيدين بالسلاسل ، أكتافهم متلاصقة وظهورهم محنية متشابهون كأنما تسكهم الحكومة كقطع النقودالمسكوكة، وكالقرش الممسوح أصبحت ملامحهم باهتة شبه ممسوحة . ومن فوق رءوسهم تطل صورة السادات

في يده العصا والصولجان ، وعلى اسنانه يضغط الكلام ويمضغه كاللبان .

ميدان الثورة امتلأ بآلاف الاحباش من كل قرية ومدينة . حتى الرجال من القبائل الجبلية جاءوا على ظهور الخيول الجامحة . تطير في الجو كالطيور الجارحة. وشعورهم الطويلة الكثيفة تطير خلف ظهورهم كفرسان العصور القديمة ، ملابسهم ملونة ، والخيول ايضا مزركشة . عيونهم حادة كالصقور ، وحركتهم السريعة الخاطفة كالسهم ينطلق او طلقة رصاص بغير صوت .

بيني وبين الملامح الجبلية قرابة دم ، كأنما ولدت فوق جبل . وفي كل بلد جبلي اشعر بالحنين الى جذوري الى جذور البدائيين ، والطبيعة والهواء ومياه المطر تجري بحرية تشق السدود . رجل أثيوبي عجوز يستند الى العكاكير يتقدم وسط الفتيان والفتيات . يرفع ذراعه في الهواء ويهتف : فلسطين . يسقط العكاز من تحت ابطه ، ويقع على الارض . يرفعه الشباب الى فوق . يضعون العكاز تحت الابط ، وينطلق الجميع في المسيرة .

منذ الطفولة وانا احب المسيرات الشعبية ، الاصوات العالية تهتف ضد الانجليز والملك . وفي المدرسة الابتدائية والثانوية ، وفي كلية الطب بالجامعة ، وفي كل مظاهرة احمل العلم واخرج . ومع الملايين اهتف : الحرية الاستقلال العدالة والمساواة .

ابتلع اللعاب المر . الحرية في بلادي غائبة . والعدل أيضا غائب ، في الوطن الام ، وفي الامم المتحدة .

***

في الامم المتحدة ترتفع مكانة الرجال البيض من العالم

الاول ، يليهم فى المكانة النســاء البيض ، من أوروبا وأمريكا ، ثم يأتى بعد ذلك الرجال الملونين من آســيا وافريقيا وأمريكا الجنوبية . وفى القاع ترقد النساء من العالم الثالث .

نظام هرمى منذ عصور الفراعنة ، والعصر اليـوناني العبودى ، حين فرض على الانسان قوانين الفلك والنجوم فالعبد يدور فى فلك السيد بمثل ماتدور الارض فىفلك الشمس . والمحكوم يدور فى فلك الحاكم . والابن يدور فى فلك الاب . والمرأة تدور فى فلك الرجل . والدولة الصغيرة فى فلك الامبراطورية الكبيرة .

والولايات المتحدة فى الامم المتحدة امبراطورية كبيرة يدور فى فلكها دول صغيرة . وحين تثور بعض الدول على العبودية تهدد الولايات المتحدة بالانسحاب من الامم المتحدة ، ومن منظمة العمل الدولية هــددت أمريــكا بالانسحاب ذلك العام ، لان منظمة العمل الدولية بدأت تراجع قوانين العمل العبودية . وامامالتهديدات بات الوظفون بالمنظمة مؤرقين مهددين بالفصل . فالولايات المتحدة تدفع للمنظمةحصةكبيرةوجزءمنهارواتب الموظفين. واعتذرت منظمة العمل الدولية عما بدر من بعض الدول الصغيرة ، أو خبراء العالم الثالث ، وباركت القــوانين القديمة الموروثة ، وعلى رأسها القانون الفيزيائى العتيد من حيث حركة الافلاك والاجرام ، ودوران الجرمالصغير فى فلك الجرم الكبير ، كما يدور الالكترون داخل الذرة حول النواة ، ويدور الانسان حول الاله .

ويدور منشور فى الامم المتحدة يؤكد هذا القانون . وهو ليس مجرد قانون . ولكنه نظام ودين . والامم المتحده تؤمن بالدين ، وتؤمن بوجود الاله ، واذا اختلفت أسماء

لاله من بلد الى بلد الا موجود . والولايات المتحدة على رأس الدول فى الامم المتحدة التى تؤكد على وجود الاله ، وتنفق الاموال الطائلة حتى لا يغيب هذا الوجود .

كانت منشورات الامم المتحدة تلصق على أبواب المكاتب بالدبابيس . وكل يوم منشور جديد . وجاءنا منشور يحذر الخبراء من نزول الشوارع فى أديس أبابا وأن نلصق على بيوتنا ختم الامم المتحدة .

ولم الصق على بيتى الختم ، وأنزل لامشى فى الشوارع فى كل الشوارع كنت أمشى ، وفى الاسواق ، والازقة . قامتى طويلة نحيفة كقامة الاحباش .. وبشرتى سمراء بلون بشرتهم ، لا أشعر بينهم بالغربة . والطفل الشحاذ على ناصية الشارع ملامحه تشبه ملامح طفلى . والفتاة الصغيرة الواقفة أمام الكشك تشبه ابنتى الصغيرة .

أطفال فى سن العاشرة يهربون من الآباء والامهات فى القرى . يهربون من الجوع . بقايا الجوع المزمن القديم منذ هيلاسلاسى . والجوع فى الحبشة أشد من الجوع فى الهند . يقتل فى الانسان الاحساس بالابن أو الابنة . يسحق فى قلب الام الامومة ، ويقتل فى الاب الابوة ، ويهرب الاطفال فى عتمة الليل من تعذيب الاب والام . يصبح الطفل الذكر شحاذا أو ماسح أحذية . وتصبح الطفلة البنت مومسا .

وفى قبائل الحبشة تختلف القيم . قد تقتل البنت اذا مارست البغاء . وفى قبائل أخرى يقدسون البغى ، وتحصل المومسات الثريات على سلطة سياسية .

فى قبيلة جوجام « أمهارا » تحتل المرأة مكانة اجتماعية عالية ، وتملك الارض وترث كالرجل تماما . وتحتفظ المرأة بعد الزواج باسمها ولا تحمل اسم زوجها .

واملاك الاسرة تقسم على الزوجين بالتساوى لا فرق بين الزوج والزوجة . ولا يجرى للبنات في هذه القبائل عملية الختان او عملية خلع الاظافر . بعكس قبيلة « جوراجي » ، وفيها لا تملك المراة ولا ترث ، والبنت لابد ان تتزوج قبل ان يدركها الحيض ، واذا ادركهــا الحيض قبل ان تتزوج يعلقونها من شعرها في شجرة . وقبل الزواج بثلاثة شهور يمسكون البنت الصغيرة وهي مستغرقة في النوم ، اربع نساء ، كل واحدة تمسك يد او قدم . وامراة خامسة تمسك الراس ، يضعون أصابع يديها وقدميها في وعاء به زبدة ثم يخلعون الاظــافر العشرين من الجذور ، وهى تصرخ وتنزف ومن حولها يرقص الاهل والاقارب ، وياتى الجيران بالهدايا كل يوم حتى تشفى البنت من جروحها بعد أسبوع أو أكثر . قبل الزواج بثلاثة أيام تشرب البنت شربة مثل زيت الخروع لتنظيف الامعاء ، ثم يفرض عليها الصيام عن الاكل اربعة ايام . في يوم الزفاف تغطى البنت تماما من الراس الى القدم ثم تحمل على فرس أو حمار الى بيت العريس ، حيث تحبس وحدها في غرفة ويطلقون عليها اسما جديدا ، وفي منتصف الليل تماما يدخــل عليها العريس ويغتصبها بعنف . على باب الغرفة يقف أهل البنت ينتظرون في قلق علامة العذرية . قطرات الدم الاحمر ، فوق منديل العريس ، وتدق الطبــول والمزامير . لكن اذا خرج المنديل نظيفا ابيض كان الله في عون البنت . قد تقتل وقد تعذب حتى الموت . كثير من البنات يهربن قبل الزواج الي أديس أبابا . وكثيرات يهربن ليلة الزفاف قبل دخول العريس . واذا اختفت الزوجة يقولون أن الضبع اخذها وأخفاها في ظلمــة

الليل .. ولابد أن يدفع أهل الزوجة فدية على شكل عجل صغير ، يقدم للضبع من أجل ان يرد الزوجة اليهم وحين يعثرون على البنت الهاربة في الجبال يجدونها فاقدة الوعى ، لا تنطق ولا تسمع ولا تتعرف على أحد . يأخذونها الى بيت شيخ القبيلة لتعيش كشحاذة حتى يأذنون لها بالعودة الى بيت أهلها . وتحظى بمعاملة أفضل من البنات . يترددون في ضربها أو تعذيبها خشية عقاب القوى فوق الطبيعة .

أما البنات الاخريات والزوجات اللائى لا يهربن فانهن يعيشن حياة العبيد . لا ترفع الزوجة عينيها الى وجه زوجها ، وتهرب منه كلما رأته ، ولا تناديه باسمه ابدا . وهو يمكن أن يطلقها بلا سبب ، أو لانها طلبت جلبابا جديدا ، أو لانها لم تنجب ، أو لانها انجبت بناتا فقط ولم تنجب ذكورا ، أو لانها أكلت قطعة لحم .

تعيش الزوجة كالعبد في هذه القبائل ، ولا يحترمها احد الا اذا أصابها الصرع أو الجنون ، ويقولون حينئذ أن الروح ركبتها . وفى شهر العسل تركب الارواح الزوجات بنسبة ٢٠٪ حسب دراسات جامعة اديس ابابا . أى انه من كل خمس زوجات تركب الروح زوجة واحدة ، ويسمونها « سودو » . وتحظى برعاية طبيسة واحترام لخوفهم منها ، واعتقادهم أن هناك صلة مابينها وبين القوى الخارقة فوق الطبيعة . وأهلها في هذه الحالة يصيبهم أيضا شيء من الاحترام ، وتصبح الفرص أمام ابنتهم أفضل ، فهى تتلقى الهدايا والقرابين اتقاء لشرها وشر الارواح التى ركبتها . وتسمى هذه البنت أو المراة « مييت » ، ويفد اليها المرضى طلبا للبركة والشفاء . ولا تكلف بأى اعمال في البيت . تجلس وفى يدها عصا ،

واذا اساء اليها أحد تضربه .

وتتجمع هؤلاء البنات والنساء اللائي ركبتهن الارواح في بيت شيخ القبيلة ، ويتولى بنفسه جمع الهدايا والقرابين التي تقدم اليهن .. وهي ثروة طائلة تزيد من ثراء مشايخ القبائل ونفوذهم السياسي .

هذه هي حياة المرأة في قبيلة « جوراجي » في الحبشة. وهي قبيلة كبيرة ، هرب منها الى اديس ابابا كثير من البنات والنساء . بعضهن يعشن في الفقر والشحاذة ومهنة البغاء . والبعض منهن قد يحظى بالتعليم . في جامعة اديس أبابا قابلت أستاذة من قبيلة « جوراجي » لكنها انكرت أنها جاءت من هذه القبيلة . وكثيرات غيرها ينكرن مثلها . لكن الرجال من هذه القبيلة لاينكرن . واستاذ اثيوبي بالجامعة قال لي : انا من قبيلة « جوراجي » . وأعطاني دراسة طويلة قام بها عن تعذيب البنات في قبيلته ، ودراسة أخرى عن قبيلة « جالا » وهي من المسلمين ، وفيها يجرى للبنات عمليات الختان ، وهي استئصال البظر من جسم البنت قبل أن يدركها الحيض . وهي عملية شائعة في بلاد افريقية متعددة ومنها السودان ومصر .

وفي أديس ابابا انواع مختلفة من المشردين الاطفال ويطلق عليهم صبية الشارع . اراهم في الشوارع واقفين عند اشارات المرور وما أن تقف سيارة حتى يهجمون عليها وفي ايديهم الفوط الصفراء يلمعون زجاج النوافذ ويشحذون . يمضغون القات بين أسنانهم ، ويشمون البنزين كما يشرب خبراء الامم المتحدة الويسكي والنبيذ . دوريات البوليس تلمهم مع القمامة حين يأتي زائر كبير ، ويودعون في السجون . يموتون بالآلاف في

السجون لقلة الطعام ، ثم يفرج عنهم حين لا تجد ادارة السجن لهم طعاما .

ومصير البنت في الشارع مثل الولد ، الا اذا حظيت بمؤهلات للدعارة . والبنت قد تمارس البغاء وهي طفلة في العاشرة . والمومسات عدة أنواع ، وكلهن يدفعن الضرائب ولهن رخص طبية تضمن خلوهن من الامراض التناسلية ؛ وتجدد الرخص الطبية مرة كل ستة شهور ومعظم المومسات من النوع الفقير أو مومس الشارع ، وهن البنات الصغيرات ، يعشن فى الشارع ، وفى الليل ينمن في افنية الكنائس ، أو أقسام البوليس .

وهناك « مومس الكشك » أو « الكيوسك » ، وتسكن في كوخ صغير من القش أو الصفيح أو الكشك الخشبي . تعلق على الكشك لافتة الكوكاكولا أو كازوزة وفى الفرفة الخليفة تمارس البغاء .

وهناك مومسات يملكن دكاكين أكبر كالبارات والحانات أو المقاهى ، ويكسبن من التجارة والبغاء معا . ولكل مجموعة منهن قوادا أو قوادة تملك الحانة وتعطى لكل مومس أجرا شهريا ثابتا .

وهناك المومسات الراقيات اللائي يعملن فى الفنادق الكبيرة ، أو الملاهى الليلية الفاخرة ، ويأخذها الرجل الى بيته ثم يعيدها الى صاحب الملهى . وبين المومسات نساء ثريات ، ولهن أحياء وأملاك ونفوذ . ترفع الواحدة منهن راسها فى كبرياء وتقول : المسيح قال أنه سيضع نارا فى فم من يأخذ ربحا عن ماله ولكنه سيسامح المومس . ومعظم المومسات متدينات ، والناجحات منهن لا يتزوجن . لكن المومس الفاشلة هى التى تتزوج لانها فقيرة . وتجهض المومس الفقيرة نفسها بأن تشرب

الجازولين أو الجاز . لكن المومس الثرية لا تجهض نفسها وترغب فى الطفل ليرث أموالها .

معظم المومسات بنات هاربات من الريف ، يعملن خادمات أول الامر ، ثم يكتشفن أن البغاء يضمن لهن حياة أكثر كرامة ، أو قد يتعرضن للاغتصاب من رب الاسرة ، وتطردهن ربة الاسرة ، ولا يجدن وسيلة للعيش الا البغاء .

وفى قبيلة « جوراجى » ترجم البغى بالحجارة حتى تموت . وفى قبيلة « جالا » وقبيلة « تيجر » تعاقب البغى بالحبس أو الضرب . وفى قبيلة أمهارا لا تمارس المرأة البغاء الا نادرا . واذا مارسته وكسبت أموالا كثيرة أصبح لها نفوذ مثل رجال القبيلة .

وفى قبيلة « بورانا » تحظى المرأة مثل الرجل بحرية تعدد العلاقات الزوجية ، ولا تعرف قبيلة«بورانا» البغاء ، لان الرجل لا يدفع للمرأة ، والزوجة لايستعبدها الرجل .

جزيرة العبيد على الساحـل الغربـى

كان عملي بالامم المتحدة يقتضى السفر الدائم . مؤتمرات دولية واجتماعات اقليمية ومشروعات للتنمية فى بلاد العالم الثالث وعلى رأسها البلاد الافريقية . وفى كـل رحلة من الرحلات أحلق فوق سماء مصر وأنا متجهة من اديس ابابا الى الشمال أو الشرق او الغرب أو الجنوب . واكتشفت أن الانتقال من بلد أفريقى الى بلد افـريقى آخر لابد وأن يمر باحدى العواصم الاوربية . ولـكى اصل من أديس ابابا الى السنغال أو النيجر وسـاحل العاج لابد ان أطير شمالا الى القاهرة ، ثم أجتاز البحر الابيض المتوسط الى باريس ، ومن باريس أركب الطائرة الى داكار .

ولاول مرة أدرك أن بلادنا الافريقية لم تستقل بعد . وأن هنـاك حبـل سرى لازال يربط بين افريقيـا والاستعمار .

أنتقل من الطائرة الافريقية فوق الارض الافريقيـة لاركب الطائرة الفرنسية أو الانجليزية فوق أرض أوروبا التي تنقلنى الى الطائرة الافريقية فوق الارض الافريقية مرة اخرى .

كأنما أدور حول العالم وحول نفسي لاعود الى النقطة ذاتها التى بدأت منها أو الى نقطة قريبة منها .

واشعر بالمهانة . لا تزال بلادنا الافريقية عاجزة عن

اتصال بعضها بالبعض دون وسـيط من البـلاد الاستعمارية .

وتزداد المهانة حين أرى المضيفة الافريقية السـوداء تنحني باحترام لكل من ارتدى بشرة بيضاء ، ورطن بلغة أجنبية ، تلبي رغباتهم وعلى وجهها ابتسامة ، وأنا أناديها فلا تسمعني وكأنها صماء .

لكن الاحساس بالمهانة يتبدد وأنا محلقة فوق السحب فوق الارض والجبال ، فوق الجغرافيا والتاريخ ، وفوق حدود البلاد التي صنعها الاستعمار .

وحين تدخل الطائرة الى سماء مصر ، أشعر بالسعادة وأدرك أن الاستعمار لا يخلو من فوائد ، فأنا أمر بالقاهرة في كل رحلة داخل افريقيا طالما أن أفريقيا لا تسافر الى افريقيا الا بعد اجتياز البحر الابيض المتوسط والهبوط على أرض أوربية .

أحملق من الجو على أرض الوطن . تحت ضلوعى دقات قلب محسوسة ، وعيناى تخترقان السحاب ، تبحثان عن الارض الصلبة فى مساحة هائلة من الهيولة الذائبة في الكون . وحين ترسو عينـاى على الارض السوداء تشتد تحت ضلوعى الخفقات . وفى الظلمة السوداء تتعلق عيناى بضوء خافت . هذا الضوء هو مصباحي بجوار سريري ، ورف الكتب ، وأوراقي ، وعينا طفلي من فوق الوسادة الصغيرة تتسعان بالدهشة وتتعلقان بالطائرة .

لحظة العناق تنقطع فجأة ، ولحظة الفراق تمتد الى الابد . وفي شوارع القاهرة امشى كالغريبة . لا زالت صورة السادات معلقة فوق كل جدار ، تحتل المساحة

بين السماء والارض ، ومن حولها لمبات النور تدور ، والارض أصبحت صفراء بلون الصحراء ، واخضـــرار الشجر أصابه الشحوب ، ونهر النيل يقاوم الامتـداد الى تل أبيب ووجوه الناس شاحبة كالارض ، وأصواتهم مخنوقة كالعبيد .

حملت حقيبتي وخرجت من بيتي الصغير في الجيزة دون أن أغسل وجهي . شقتي في الدور الخامس ، ولم تعد مواسير المياه تحمل الماء . ركبت سيارة الليموزين متجهة الى المطار . اجتزنا كوبري الجيزة ، وفاحت رائحة الجلود الميتة قرب المدافن حيث المدينة الجديدة ، يسمونها مدينة الموتى ، ومليونان من البشر يعيشون فيها وينادون في القبور .

سيارة الليموزين سوداء أنيقة من النوع المرسيدس . شركات السياحة الجديدة تشتغل بكفاءة عالية لخـدمة السياح الاجانب . السائق المصري يرتدي قبعة ويتحدث في جهاز لاسلكي . أخذ مني ضعف الاجـــر بقشيش ورمقني بنظرة ازدراء حين نطقت بالعربية .

على باب المطار كان الزحام شديدا . أحد جـــراس الابواب يسب امرأة فلاحة تجر ثلاثة أطفال . يلقي بجواز سفرها الاخضر على الارض ويبصق . النسر ذوالجناحين تغطيه البصقة . مددت يدي بجواز الســـفر الازرق، وتمتمت ببعض كلمات انجليزية . انحنى مبتسما وأفسح لي الطريق .

جلست في مطار القاهرة احملق في الفراغ وفي جوفي مرارة . اصبحت اتكلم الانجليزية في بلدي ليفسح لي الطريق وانال الاحترام . اشعر بالغـــربة في وطني ،

وخارج الوطن أيضا أشعر بالغربة . لازلنا نعيش عصر العبيد .

دوى في أذني صوت حاد كالصرخة الحادة أو زغرودة طويلة ممدودة . فتاة مصرية ترتدى فستان الزفاف الابيض . تتعثر فى ذيل فستانها الطويل ، وعلى جبهتها حبات عرق . تسير نحو الطائرة السعودية فى وجل وفى جيبها صورة عريس جاءتها بالبريد وشيك على البنك فى جيب أبيها . من الطائرة نفسها يهبط جثمان فلاح مصرى داخل صندوق خشبى ، وفى جيبه الداخلى صورة امه ورزمة دنانير . الزغاريد الحادة المطوطة تختلط بأصوات النواح والعويل . وعلى أرض المطار يرقد الفلاحون المصريون صفوفا . تحت الراس قفة او حقيبة ممزقة مربوطة بالحبال ، ومن فوقها الاسم والعنوان بحروف عربية متعرجة .

لاول مرة فى تاريخ مصر يهاجر الفلاح بحثا عن لقمة العيش . سنوات السادات جلبت للوطن الاجانب والاسرائيليين وطردت الوطنيين حتى الفلاحين ، تركوا الارض فى القرى لتبور ، وشركات أجنبية حولت الارض الزراعية الى مكاتب بالاسمنت المسلح . والموز الاسرائيلى طرد الموز المصرى من السوق . والشامبو الامريكى اكتسح واختفى الصابون النابلسى . وغرق الناس فى العرق يجرون بغير استحمام وراء الرغيف .

المقاعد فى مطار القاهرة أصبحت من البلاستيك المستورد وطليت بلون برتقالى .

عمال النظافة فى المطار يرتدون بدلا أجنبية ، يكنسون الارض وعلى ظهورهم علقت أحرف انجليزية .

خيل الى أننى فى مطار آخر غير القاهرة . وأن هؤلاء

العاملات والعمال ليسوا مصريين وانما انجليز او امريكيين من ذوى البشرة السمراء . وربما استوردت حكومة السادات رجالا ونساء لعملية كنس الارض . ولم أكن رأيت من قبل رجلا انجليزيا أو أمريكيا يأتى ليكنس الارض فى بلد من بلادنا أو مايسمونها البلاد المتخلفة أو العالم الثالث .. العكس هو الذى كنت أراه ، وهو أن يذهب شبابنا لكنس شوارع العالم الاول .

المفروض أن تكنس كل بلد أرضها سواء كانت فى العالم الاول أو الثالث والمفروض أن ينظف كل انسان نفسه وبيته سواء كان حاكما أو محكوما رجلا او امرأة ، أبيض او أسود . فليس هناك امتهان للانسان أكثر من أن يغسل الملابس الداخلية لانسان آخر وان كان هذا الانسان الآخر هو الملك أو الامبراطور .

وأخذت أتأمل الحروف الانجليزية فوق ظهور الكناسين فى المطار بدهشة . وازدادت دهشتى حين علمت من أحدهم انه ليس انجليزيا ولا أمريكيا وانما مصرى صعيدى استأجرته شركة انجليزية أصبحت هى المتولية أمر تنظيف مطار القاهرة .

ويمكن لعقلى أن يتصور أن الحكومة قد تستعين بالخبرة الاجنبية فى مجال علمى عويص أو فى حل مشكلة تكنولوجية مستعصية ، ولكن أن نستعين بشركة انجليزية لكنس أرض مطارنا فلم يخطر ببالى أو خيالى .

ولكن هذا هو ما أوصلنا اليه حكم السادات ، وبعد أن كنا بصدد التصنيع الثقيل أصبحنا نعجز عن كنس مطارنا بأنفسنا ، أو أننا نكنسه بأيدينا تحت ادارة واشراف انجليزى . وكأنما نعلن على الملأ أننا لا نملك الا سواعدنا ، ونحتاج دائما الى عقل آخر غير عقلنا كى

يشغلنا ويديرنا .

وتذكرت فقرة قرأتها فى احدى الصحف فى نوفمبر ١٩٧٧ بعد زيارة السادات لاسرائيل ، وهى لمناحم بيجين قال فيها أن العلاقات الطيبة التى يمكن أن تنشأ بين مصر واسرائيل سوف تساعد على أن تستفيد كل بلد بامكانيات البلد الاخرى . واسرائيل فيها العقل ، ومصر فيها الايدى العاملة ، وبتعاون الاثنين معا : العقل الاسرائيلى والسواعد المصرية سوف يزدهر الكون .

ولابد أن بيجين كان يعنى بالكون اسرائيل !

والغريب أننى رأيت المنظر نفسه فى مطار جدة . رأيت العمال السعوديين يكنسون مطار جدة وقد علق الواحد منهم فوق ظهره لافتة حروفها انجليزية أو امريكية .

والاغرب من هذا أننى لم أر هذه اللافتة على ظهور الكناسين فى مطار دار السلام أو عدن أو داكار أو نيودلهى أو كولومبو أو حتى زنجبار جزيرة العبيد ..

***

الطائرة الفرنسية تنقلنى من باريس الى داكار . أحلق من الجو على مضيق جبل طارق . المضيفة الفرنسية الشقراء تضع أمامى صينية الاكل وزجاجة نبيذ ، ودفتر بأنواع الموسيقى ، وسماعات صغيرة أضعها فى أذنى ، وأحرك بطرف أصبعى « زر » مثبت فى المقعد ، وأسمع بيتهوفن أو شوبان أو موزار . احرك طرف اصبعى قليلا فوق « الزر » فتتغير القناة واسمع موسيقى الجاز . اثنى عشر قناة مختلفة تنقل الى وأنا فى الجو اثنى عشر نوعا من الموسيقى ، ابتداء من السيمفونيات الكلاسيكية الى رقصة الكونجو فى افريقيا

على الشاشة امامى يعرض فيلم أمريكى « الحب

والجريمة » طلقات الرصاص وخيول تقفز فوق جبال واغتصاب جنسي لفتاة زنجية .

أنام ثم أصحو علي صوت المضيفة يعلن بالفرنسية أننا نهبط في داكار . شمس حارقة ، وتراب ورائحة العرق ، واجساد راقدة علي الارض . حملتني سيارة الامم المتحدة الي الفندق الضخم المطل على البحر . وحول أطباق اللحم المشوي وكئوس النبيذ المثلج جلست وسط خبراء الامم المتحدة وفي جيب كل خبير مشروع جديد للتنمية .

منذ عملت بالامم المتحدة وأنا أشهد هؤلاء الخبراء الدوليين . لم أكن اعرفهم على حقيقتهم ، وكانت كلمة « خبير » حين ترن فى أذنى تصيبنى بالرهبة .

كنت لا ازال أعمل بالحكومة المصرية ، وما أن يأتى احد من هؤلاء الخبراء لمقابلة الوزير حتى ترتعد فرائص الوزارة كلها . وتنتقل الى الرعدة بالعدوى . واجلس امام « الخبير الدولى » منكمشة فى مقعدى ، مرهفة الاذنين ، أخشى أن تفوتنى كلمة أو درة من تلك الدرر التى يمكن أن تتساقط من فمه . وكنت اتهم نفسى بالغباء حين لا افهم شيئا مما يقوله الخبير الدولى ، ولا أعرف الصلة بين ما يقوله وبين مشكلة الجوع فى مصر أو الهند ، والتى تخصص فيها وهو يعيش فى نيويورك أو باريس ويتغذى غذاء كاملا ، وحين يزور مصر أو الهند ينزل فى فندق هيلتون أو مينا هاوس . الى أن أتاح الله لى الفرصة الكاملة لمعرفة هؤلاء الخبراء العالميين فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم الدولية والتى فيها يمرحون ويسرحون ويسوحون بالعالم الثالث ، وكل همهم هو أن يحلوا لنا نحن الفقراء مشكلة الجوع . وفى كل مؤتمر

احضره أندهش لهذا الكم الهائل من حفلات العشاء والكوكتيل ، وهذا الحماس النادر لمشكلة الجوع من فوق الاطباق المملوءة باللحم والدجاج .

لم أكن أحضر الحفلات ، ولا أتزين أو أرتدى الملابس الانيقة كالخبيرات الدوليات ، وهيئتي كانت تتخذ دائما شكل امرأة من فقراء العالم الثالث ، فاذا بخبراء الامم المتحدة يندهشون ويعتبرون وجودى بينهم كالشيء النشاز .

لكن حديثهم يفيض حبا للفقر والفقراء ، ولا يكفون عن الحديث عن الجوع في اجتماعاتهم وحفلاتهم وأوراقهم وبحوثهم وما أن يرون جائعا او فقيرا حتي يتأففون .

وكنت أجلس بين هؤلاء الخبراء أتأملهم وأسمعهم ، كموظفي الحكومة ، لهم شكل واحد ، ولهم طريقة واحدة في النطق ، وفي حركة الشفاة والعينين واليدين بل ان شكل حقائبهم واحد ، ونوعها واحد « من السامسونيات » والاوراق داخلها أيضا شكلها واحد ، وتقاريرهم صيغتها واحدة .

وكنت أقول أن موظفي الحكومة لهم عذرهم ، فالحكومة تسك الموظفين كما تسك النقود ، أما الخبراء الدوليون فمن الذى يسكهم ليصبح الواحد منهم نسخة من الآخر ؟!

وأدركت أن المنظمات الدولية حكومة أخرى ، قد تكون حكومة فوق الحكومات أو تحتها ، وقد تكون حكومة الظل ، لكنها لا تختلف عن أى حكومة أخرى ، الداخل فيها مفقود وان كسب آلاف الدولارات ، والخارج منها مولود رغم الفقر والجوع .

في فندق داكار الفخم المطل على المحيط الاطلسي

جلست وسط هؤلاء الخبراء الدوليين . عرض أحدهم مشروعا جديدا للتنمية في السنغال . ميزانية المشروع ١٢٦ ألف دولار ، قسمت كالآتي :

مرحلة اولى

العــام الاول

٤١ الف دولار اجر الخبير فى السنة .
٢٠ الف دولار أجر مساعدة الخبير فى السنة .
٥ آلاف دولار لشراء سيارة للخبير .
١٥ الف دولار أجر لسائق الخبير فى السنة .
٥ آلاف دولار مصاريف طبع التقارير .
١٠ آلاف دولار شراء أجهزة تكنولوجية حديثة .

مرحلة ثانية

العام الثانى

٣٠ ألف دولار مصاريف عقد مؤتمر فى نيويورك لمتابعة المشروع .

المجموع : ١٢٦ الف دولار امريكى .

اخرجت من جيبى تقريرا من تقارير الامم المتحدة عن النتائج الخمسة الاساسية لمشروعات التنمية فى العــالم الثالث . وضعت التقرير أمامهم . يتلخص التقــرير فى الآتى :

اتضح من الدراسات التى وردت الى الامم المتحدة عن مشروعات التنمية فى افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية خلال عقد التنمية ان هذه المشروعات باءت كلها بالفشل، وأن نتائجها كانت عكسية كالآتى :

١ ــ ازدياد الهوة بين بلاد العالم الاول وبلاد العالم الثالث .

٢ ــ ازدياد الهوة بين الفقراء والاغنيــاء فى البلد الواحد .
٣ ــ ارتفـــاع المستـوى الاقتصادي لخبراء الامم المتحدة .
٤ ــ انخفاض الانتاج الزراعي والصناعى والثقافي فى بلاد العالم الثالث .
٥ ــ تضاعف أرباح مصانع التكنولوجيا فى العــالم الاول .

تركوا كئوس النبيذ ، ووضعوا النظارات فوق عيونهم، يتشككون فى صحة التقرير ، ويتسـاءلون : ماهو مصدر هذه المعلومات ؟

والمصدر هو الامم المتحدة ذاتها . يرتفع الحـاجب فوق العين باندهاش . يركبون العدسات مـرة أخرى فوق العين . يتأكدون أن المصدر هو الامم المتحدة ، والختم ليس مزورا والتوقيع صحيح .

يمسكون كئوس النبيذ مرة أخرى ، ويرفعون عيونهم نحو السماء ، كأنما فى انتظار الوحى أو الالهام . يرشفون على مهل ثم يعترفون بصوت حزين أن مشروعات التنمية فشلت فعلا ، ويتساءلون عن السبب .

وفجأة يهب أحدهم واقفا ، عيناه تلمعان بالحمــاس والنبيذ معا ويصيح : الانفجار السكانى !

ويردد الجميع بصوت منتشى : نعم الانفجار السكاني!

وبصوت هادىء رصين يعتلى أحدهم المنصة ويقول: منذ انعقاد أول مؤتمر عالمى للسكان تحت اشراف الامم المتحدة فى بوخارست عام ١٩٧٤ لم ينخفض معدل نمو سكان العالم الا ٠٫٣٪ فقط ، من ٢٪ سنويا الى ١٫٧٪ سنويا .

يتنهد الجميع وترتخي عضلاتهم تماما .

ويواصل الخبير كلامه : المشكلة ياسادة أن خصوبة نساء العالم الثالث تزداد على حين تفقد الارض خصوبتها .. وتشير تقديرات البنك الدولي وتقارير الامم المتحدة أن عدد سكان الارض زاد في السنين العشر الماضية ٧٧٠ مليون نسمة ، وأصبح عدد البشر اليوم ٤٫٧٥ مليار . وسوف يتضاعف هذا العدد عام ٢٠٢٥ ليصبح ٨٫٣ مليار ،بشر منهم ٧ مليارات في بلاد العالم الثالث .

ويلتهم الخبير قطعة من فخذ الدجاجة المشوية ثم يقول : ان الفشل في ضبط معدل نمو السكان في العالم الثالث ستكون له نتائج خطيرة ، انتشار الجوع والبطالة وتشوهات البيئة والنمو السرطاني في المدن ، وازدياد العنف والارهاب وعدم الاستقرار العالمي . ان استمرار نمو خصوبة النساء في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية سيقودنا الى عالم بلا أمل ، تهدده المجاعة والفوضى وقانون الغاب ، عالم يمتلىء بالاسلحة المدمرة على شكل أفواه بشرية جديدة تطلب الطعام . وفي افريقيا السوداء ارتفعت خصوبة النساء . مثلا في كينيا أصبح متوسط عدد الإطفال الذين تلدهم المرأة الكينية ٨ اطفال ، كما ان ارتفاع المستوى الصحي أدى الى انخفاض في معدل وفيات الاطفال وبالتالي يمكن أن يرتفع عدد سكان كينيا من ٢٠ مليونا اليوم الى ٨٣ مليون نسمة عام ٢٠٢٥ ، وفي بنجلاديش بلغ معدل خصوبة النساء « أى متوسط عدد الاطفال الذين تلدهم المرأة في عمرها كله » ٦٫٣ ، وهذا يعني أن سكان بنجلاديش سيصل عددهم الى ٢٦٦ مليونا عام ٢٠٢٥ أي ثلاثة أضعاف العدد الحالي .

ومعدل الخصوبة في الهند ٧ر٤ ، وفي عام ٢٠٢٥ سيصبح عدد سكان الهند ٥ر١ مليار نسمة . أما المرأة الامريكية والاوربية الغربية فان معدل خصوبتها ليس الا ٦ر١ طفل . وهكذا نري أن سوء الاحوال في بلاد العالم الثالث يعود الي زيادة الخصوبة لدى النساء ، وأن الزيادة في معدلات النمو الاقتصادي في هذه البلاد تأكله الافواه التي تنتجها أرحام النساء . وتزداد الهوة بين مستوى الدخل في العالم الثالث والعالم الاول . مثلا في الفترة من عام ١٩٥٥ حتي اليوم ارتفع متوسط دخل الفرد في أمريكا من سبعة آلاف دولار سنويا الى ١١٥٠٠ دولار ، أما في بلاد العالم الثالث فلا يزال دخل الفرد يتراوح ما بين ١٧٠ دولارا سنويا الى ٢٦٠ دولارا . وهكذا تضاعفت الفجوة بين بلاد العالم الاول وبلاد العالم الثالث والسبب في ذلك يرجع الى خصوبة المرأة في هذه البلاد المتخلفة . باستثناء بعض البلاد مثل تايلاند والصين حدث انخفض معدل النمو في السكان في السنين الاخيرة بسبب تصميم هذه البلاد على تنفيذ برامج صارمة لتنظيم الاسرة .

ويرن في القاعة سؤال : ماذا تقصد ببرامج صارمة ؟
ويهمس خبير : عمليات قتل الاطفال البنات في الصين ؟

ويعترض خبير : لا ، انه اباحة الاجهاض . ويرد آخر لا ، انها عمليات التعقيم للرجال والنساء دون تفرقة بين الجنسين . ويقول خبير : لا هذا ولا ذاك ، انه انشاء وحدات تنظيم الاسرة . في تايلاند وحدها ٤ آلاف وحدة لتنظيم الاسرة .

ويعترض آخر : لكن هذه الوحدات تتكلف أموالا كثيرة . عندى تقرير من البنك الدولي يقول ان العالم

الثالث يحتاج الي ٦ر٧ مليار دولار من اجل انشـاء وحدات لتنظيم الاسرة .

ويصيح خبير من أمريكا : هذا مبلغ ضخم جدا . كيف ندفع ٦ر٧ مليار دولار لمجرد خفض معدل خصوبة نساء العالم الثالث ؟

ويرد خبير من الهند : ولكن العالم ينفق سنويا على التسليح ٦٠٠ مليار دولار ، وايهما أهم انتاج اسلحة لقتل البشر في الحروب أم انتاج وسائل لمنع ولادة البشر .

ويقول خبير من باكستان : كلاهما قتل للروح وهذا حرام عند الله .

ويرد خبير : الافضل قتل الجنين قبل أن يتكون في رحم الام بدلا من قتله فى الحرب .

ويقول واحد : الافضل أن نمنع دخول الحيوان المنوى الى رحم المرأة من خلال الاتصال الجنسى .

ويقول آخر : هذا صعب ، والاسهل استئصال رحم المرأة ، أو سد قناة « فالوب » حيث يجتمع الحيوان المنوى بالبيضة . ويرد الخبير من أمريكا : الافضل منع تعدد الزوجات وتعدد العلاقات الجنسية ، فالرجل الواحد يخصب عشرات النساء . ويصيح الخبير من باكستان : لقد أباح الله للرجال تعدد الزوجات ومن ملكت اليمين .

ويتساءل خبير من السويد : ما معنى « من ملكت اليمين » .

ويرد الخبير الباكستاني : يعنى الجوارى والعبيد من النساء .

ويصيح الخبير السويدى : هل لا يزال عندكم عبيد ؟

الم يتم تحريم العبيد منذ القرن الماضى ؟
ويرد خبير من فرنسا : أتعرفون السبب الاساسى للانفجار السكانى فى بلاد العالم الثالث ؟
ويهتف الجميع : ماذا ؟
ويرد الخبير الفرنسى : انه تعدد الزوجات وتحت يدى تقرير يقول أن معدل المواليد بين المسلمين أكثر من غيرهم .
ويتهيج الخبير الباكستانى ويقول : ليس الاسلام باسادة ولكنه فشل مشروعات التنمية .
ويتساءل الامريكى : ولماذا تفشل مشروعات التنمية؟
ويرد الهندى : لان هذه المشروعات لا تلبى احتياجات بلاد العالم الثالث وانما تلبى احتياجات بلاد العالم الاول .
ويتساءل السويدى : ولماذا لا تلبى المشروعات احتياجات العالم الثالث ؟
ويرد الهندى : لان الذى يضع هذه المشروعات هم خبراء العالم الاول وليس خبراء العالم الثالث .
ويتساءل الامريكى : وأنت ؟ ألست خبيرا من خبراء العالم الثالث ؟
ويرد الهندى : نعم ، ولكنى أعيش معك فى نيويورك ولا أنتمى الى العالم الثالث .
ويضحك الجميع ، يدق رئيس الجلسة على المائدة معلنا انتهاء المؤتمر ، ويصدر الجميع قرارا بعقد مؤتمر آخر لمناقشة المشكلة ذاتها خلال الصيف القادم على جبال سويسرا ، ويتقرر اعتماد مبلغ ٩٥ ألف دولار لهذا المؤتمر الجديد .

***

التقيت بفتاة اسمها « آن » . رأيتها تركب دراجتها

البخارية في الشارع المطل على المحيط . ملامحها دقيقة وبشرتها بلون البن المحروق . وعمرها خمسة وعشرين عاما . أمها سنغالية تزوجت رجلا من ساحل العاج . أنجبت منه ٧ أطفال ثم تركها . عاشت « آن » مع أمها واخواتها ثم جاءت الى داكار لتعمل بالصحافة . ادخرت من أجرها واشترت الدراجة البخارية . طافت بلاد غرب افريقيا ، تدرس أوضاع المرأة .

ذهبت معها الى متحف داكار بجوار المبنى الضخم لمجلس الامة . قادتني الى غرفة واسعة بها تماثيل لرجال ونساء افريقيات . لاحظت أن النساء أكبر حجما من الرجال في قبائل « سينوفوكوروجو » في مالي وساحل العاج . رأيت تمثال امرأة ضخمة الجسم والرأس الى جوارها زوجها أصغر حجما .

وقالت آن : رأيت هذه القبائل في مالي وساحل العاج والمرأة هناك أقوى من الرجل ، وتشتغل في الحقل والبيت ، والرجل كسول لا يكاد يعمل شيئا . وتذكرت القبائل التي رأيتها في جنوب الهند حيث تشتغل المرأة وتعول الاسرة والرجال يرقصون حول الاله شيفا ويتزينون بالحلي والمساحيق .

وقالت آن : أمي هي التي كانت تشتغل وتعولنا .

خرجنا الى الشارع وسرنا نحو المحيط . ملامح أهل السنغال شديدة الجاذبية . البشرة بلون الكاكاو والابتسامة المشرقة والقوام الممشوق . احساس بالسلام والامان في أي مكان ، بعض الناس يتكلمون العربية ، ومجموعة من النساء يصلين في العراء . رجل في جامع يؤذن لصلاة الظهر . طفل صغير يقترب منا ويطلب فرنكا .

وصلنا الى المركب الذي سياخذنا الى جزيرة جوريه تحركت السفينة وابتعدت عن شاطيء داكار . تحرك الهواء واصبح منعشا باردا . جزيرة جورية تبدو من بعيد فى وسط المحيط الاطلسى كالصخرة . آن الى جوارى . شعرها الاسود الخشن على شكل ضفائر صغيرة كثيرة ملتصقة بالراس . انفها الحاد مرتفع وفى ارتفاعه شموخ وقوة . وقالت آن : ساحكي لك قصة سمعتها من امراة افريقية فى ساحل العاج :

« منذ زمن بعيد أراد الاله العظيم في السماء أحدا يساعده فى عمل شيء ، فنادى على النساء . لكن النساء كن مشغولات بالعمل فى زراعة الارض وخض اللبن لاطعام الصغار وتغطية الكوخ بالطين منعا للرياح . ونادى الرب عليهن قائلا : تعالوا هنا ، سوف ارسلكن فى مهمة كبيرة لكن النساء اجبن قائلات نعم ، سنحضر ، ولكن انتظر لحظة حتى ننتهى من اعمالنا . وبعد فترة نادى عليهن الرب مرة أخرى ، وأجابت النساء مرة أخرى قائلات : انتظر لحظة حتى ننتهى من عمل الطعام وسقف الكوخ . وكان الرجال فى ذلك الحين لا يحلبون البقر ولا يبنون الاكواخ ولا يبحثون عن وقود ولا ماء مثل ماكانت النساء تفعل . كان عملهم الوحيد هو اقامة سور حول البيوت . ولانهم كانوا بلا عمل تقريبا فقد أسرعوا لتلبيــة نداء الرب قائلين : « أرسلنا يا ابانا بدلا من النســاء » . وهكذا اتجه الرب الى النساء وقال : أيها النساء سوف لا تنتهى أشغالكن الى الابد ، فاذا ما انتهى عمل جاءكم عمل آخر . اما الرجال فسوف ينالون الراحة لانهــم سمعوا ندائى حين ناديت ، ولكن أنتن يا نساء فسوف

تعملن وتشقين بلا راحة حتى نهاية اجلكن . وظلت حياة النساء منذ ذلك الحين عمل وشقاء وكدح . ومر الزمن. وجاء يوم جاء فيه رجال أجانب ومعهم كتب وحبـوب وبنادق . رحب بهم الرجال الذين كانوا فى راحة دائمة وبدأ الرجال ينقسمون الى قسمين : قيادات لا تعمل . وعبيد يعملون بغير انقطاع . وتدرب العبيد على احترام العمل عن طريق دفع الضرائب . أما النساء فقد واصلن عملهن دون أن يلتفت اليهن احد . وفى النهاية طلبت النساء من ابنائهن واخواتهن وأزواجهن أن يعوضوهن عن جهدهن فى العمل . لكن الرجال ذكروهن بأن الرب قد كتب عليهن أن يكن خادمات للجنس البشرى . وقالوا أن الكتب التى جلبها الاجانب تؤكد أيضا أن مكانة المـرأة تحت الرجل . وزمجرت بعض النساء قائلات أن : أعظم عقاب هو أن يكون الانسان فقيرا وامراة . ونساء اخريات بدأن يبحثن عن طرق للتحرر .

وانتهت آن من قصتها وضحكت . أسنانها البيضاء تلمع فى وجهها الاسود . عيناها تلمعان كأسنانها . توقفت المركب عند شاطىء الجزيرة . قفزت « آن » من المركب الى الارض بخطوة واحدة . جسمها طويل نحيف كراقصات الباليه . تمشى رافعة رأسها مملوءة بالثقة والكبرياء .

صعدنا الى القلعة العالية المطلة على المحيط ، وجلسنا على حافة الصخر نطل على ارض السنغال من بعيد . وقالت آن : من هذه الجزيرة قيدوا جدة أمى وأرسلوها الى امريكا . ولهذه الجزيرة تاريخ قديم ، منذ القرن ١٥ ، حين بدأت البرتغال وأسبانيا البحث عن طـريق

جديد عبر البحار . كان العرب يسيطرون على الطريق الذى يؤدى الى الشرق حيث كانت الثروات . وفى عام ١٤٤٤ وصلت سفن البرتغال الى هذه الجزيرة وسموها جزيرة « بالما » ، جعلوها مقبرة لدفن موتاهم ، ثم حولوها الى مركز للتجارة مع افريقيا . وفى نهاية القرن ١٥ جاء الفرنسيون واطلقوا على الجزيرة اسم جوريه ، وبنوا عليها هذه القلعة على التل ، وقلعة اخرى على الشاطىء . وبالرغم من هاتين القلعتين غزا البرتغاليون الجزيرة فى عام ١٦٥٩ ، ثم غزاها الانجليز فى عام ١٦٦٤ ، وبعد عشرة شهور طرد الفرنسيون الانجليز منها ثم جاء الهولنديون مرة أخرى وطردوا الفرنسيين . وظلت الحروب تدور فوق الجزيرة بين بلاد أوروبا حتى استولى عليها الانجليز عام ١٦٩٧ . واندلعت الحرب مرة أخرى واحتلتها الشركات الفرنسية التى أفلست بسرعة ، وظل الحاكم الفرنسي فوق الجزيرة وتعاون مع صاحب سفينة حملته الى امريكا ومعه ستين عبداً افريقيا . لكن صاحب السفينة تركه فى قارب صغير فى عرض المحيط وهرب مع العبيد الى امريكا . اما جزيرة جوريه فقد ظل يعيش فوقها نسل مختلط من أوروبا وافريقيا ، ونساء الجزيرة كانت لهن قوة وجبروت مثل نساء قبائل السينوفو كوروجو فى مالى وساحل العاج . وكان يطلق عليهن اسم « سيجنار » ، تزوجهن حكام الجزيرة ، ونشطن فى التجارة وأصبحن من ذوات الثراء الكبير والنفوذ . وفى عام ١٧٤٩ كان سكان الجزيرة ٦٦ شخصا فقط ملكوا ١٣١ عبداً ، وفى عام ١٧٦٧ وصل عدد السكان الى ١٠٠٠ شخص ، تضاعف الى ٢٠٠٠ شخص فى عام

١٧٨٦ . واستولى الانجليز على الجزيرة بعد حرب السبع سنوات من ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ ثم عاد الفرنسيون اليها عام ١٧٨٩ ، وعين الملك لويس السادس عشر حاكما فرنسيا على السنغال كلها . ثم غزا الانجليز الجزيرة مرة أخرى خلال حرب سنة ١٨٠٤ حتى سنة ١١٨٧ ، وسمحوا لاهل الجزيرة أن يبنوا بيوتهم من الحجر على الشاطىء الذى حرمه الفرنسيون عليهم وأطلقوا عليه اسم « رصيف الملك » . واسس الانجليز مع أهل جوريه مدينة بانجول. ثم استولت فرنسا على الجزيرة مرة أخرى عام ١٨١٥، وتمتعت جوريه بتسهيلات التجارة كميناء حر ، ونشطت التجارة من سنة ١٨٤٠ بعد اكتشاف زيت الفول السودانى ، ووصل عدد السكان الى ٦٠٠٠ شخص منهم ٤٠٠٠ عبد افريقى لم يتحرروا الا فى عام ١٨٤٨ .

وانتهت « آن » من قصة جوريه ، وتركنا القلعة وهبطنا الى بيت العبيد الذى أصبح متحفا الآن .

الدور العلوى من البيت كان مخصصا لتجار العبيد . الدور الارضى مقسم الى غرف . غرفة الوزن حيث كانوا يضعون العبد فوق الميزان كما توزن الماشية . اذا كان العبد اقل من ٦٠ كيلو جراما يحبسونه فى غرفة اخرى فترة من الزمن ويطعموه حتى يسمن .

غرفة العبيد من النساء مكتوب عليها عبارة باللغة الفرنسية . معناها أن « قيمة المراة بثدييها » كانوا يفحصون ثديي المراة ليحددوا ثمنها قبل البيع . أما الرجل فكانوا يفحصون أسنانه . وهناك غرفة لفصل الاطفال عن أمهاتهم . فى قاع البيت باب يؤدى الى المحيط ، يربطون العبيد بالسلاسل ليسيروا فوق حاجز

خشبى الى السفينة . كان بعض العبيد يلقون بانفسهم في الماء فيغطس وراءهم الغطاس وينتشلهم ويعيدهم الى السفينة . عدد العبيد الذين ارسلوا الى امريكا ٢٠ مليون عبد ، وهناك رأى آخر يقول ان العدد ٢٠٠ مليون.

هناك بيت آخر مقابل لبيت العبيد . هو بيت امرأة من ذوات النفوذ والثراء اسمها السيجنار « آن بيبان »؛ كانت عشيقة الحاكم ، وبيتها على شكل مركب ضخم ، وكانت تسير فى الشوارع فى موكب يشبه موكب الملك . تحول بيتها الى متحف . لوحات ضخمة تغطى الجدران . احدى اللوحات عليها كلمات عربية كالاتى :

« سيجتمع سويا جميع القبائل الفلانية فى مكة ويكون ذلك علامة لقيام الساعة » .

وعلى لوحة اخرى كتب : قبيلة « فلانى » اسمه « باح » البحر الابيض . بعد الاسلام غيروها الى كلمة « مكة » .

وآيات من القرآن معروضة داخل علب من الزجاج ، وسلاسل حديدية صدئة كانت تستخدم لربط العبيد . سفينة طويلة رسم عليها العبيد راقدين فى القاع كالسردين . لوحة كبيرة لامرأة قوية ضخمة من نساء الامازون تمسك فى يدها رأس رجل من الحكام . وقالت « آن » : العبيد من الرجال والنساء هم الذين حرروا انفسهم ولم يحررهم الاوربيون كما ذكروا فى التاريخ . كان هناك جيش من النساء يحارب فى القرن ١٩ ضد الجيش الاستعمارى .

خرجنا نتمشى على الشاطىء ، وجلسنا الى مطعم صغير تعزف فيه فرقة موسيقية سنغالية . المغنى شاب

طويل نحيل يرتدي قميصاً ملونا . يعزف على آلة تشبه العود ويغنى أغنية شعبية شائعة . لم أفهم كلمات الاغنية وترجمتها « آن » لى . تقول الاغنية أنه كان هناك فتاة جميلة صغيرة ، وفى ليلة زفافها خشيت أن يكتشف عريسها أنها ليست عذراء ، فجعلت فتاة عذراء ترقد مكانها فى سرير العرس . لكن أهل العريس اكتشفوا أمرها . وتنتهى الاغنية بانتحار الفتاة .

وقالت آن : هذه الاغنية لا تغنيها الا القبائل الابوية فى افريقيا وهى القبائل التى تستعبد المرأة وتجرى عملية الختان للبنات . لكن القبائل الامومية تنظر الى المرأة كانسان ، ولا تجرى للبنت عملية قطع البظر ، بالعكس، منذ تولد البنت تقوم الام أو الخالة بتنشيط البظر عن طريق التدليك لينمو ويزداد حجما وطولا . وهذه القبائل تعيش فى رواندا واوراندى ، ومالاوى وزامبيا وزيمبابوى ومالى . وفى أوغندة هناك قبائل « أنكولى » وقبائل « تورو » و « نيكولى » ، وفيها تحدث عمليات اطالة البظر ، وقبائل أخرى تساعد على تنشيط الاعضاء الاخرى للبنت كالشفرتين الداخليتين ، ومن هذه القبائل بوجاندا ، بوسوجا ، وبانيورو فى أوغندة أيضا . والى جوار هذه القبائل توجد قبائل أخرى تستئصل بظر البنت قبل البلوغ وتستئصل معه الاعضاء الخارجية كلها كما يحدث فى السودان والصومال وبعض قبائل كينيا والحبشة ، وفى هذه القبائل يصر أهل العريس على رؤية دم العذرية ليلة الزفاف على منديل أبيض . واذا ظل المنديل أبيض تعرض البنت للموت أو الانتحار ، كهذه البنت فى الاغنية .

كان الشاب السنغالى لازال يعزف على آلته ويغنى .

من حوله التفت الناس واخذوا يغنون معه ويرقصون . بين الراقصين امرأة امريكية عجوز . تعيش في بيتها على شاطىء الجزيرة منذ عشر سنين . اخذتنا الى بيتها لنشرب الشاى . في فناء البيت شجرة ضخمة ، وفى الغرفة الخلفية آلة كاتبة على منضدة منخفضة وكرسى منخفض مثل كراسى البوذيين . اسمها « سوزى » وعمرها ٧٥ عاما ، ولدت فى سانتا بربارا على الساحل الغربي لامريكا الشمالية . لها ثلاثة أحفاد من ابنتها الوحيدة . وزوجها طلقته منذ ثلاثين عاما . وفى بهو البيت رايت رجلين جالسين على الارائك المصنوعة من البوص . رجل سنغالى عاش فى أمريكا عشرون عاما . ورجل امريكى عاش في افريقيا عشرون عاما . السنغالى يتكلم الانجليزية بطلاقة ، والامريكى يتكلم السنغالية بطلاقة . وعيونهم ترمقنى بدقة كأنما يحفظون ملامحى . والمرأة الامريكية العجوز عيناها تلمعان من حين الى حين شيء من الغموض يحيط بهذا البيت . يبدو لى فى لحظة كانه وكر للجاسوسية . وفى لحظة ثانية يبدو كبيت للمرضى النفسانيين ، وفى لحظة ثالثة يغلف المكان نوعا من الجمال النادر . هذا الجمال الذى يحيط بانسان عظيم له رسالة انسانية كبيرة .

وسألت المرأة الامريكية العجوز : ولماذا تركت وطنك؟ وقالت : جئت الى هنا فى رحلة سياحية ، واحببت هذه الجزيرة ، وقررت أن أعيش فيها بقية حياتى .

قد تكون صادقة . فى عينيها لا أرى الكذب . لكنى لا اصدق كل العيون .

بالقرب من مطار داكار جلست فى بيت الكاتب السنغالى سيمبينى عثمان . رجل متوسط العمر ،

زحف الشيب الى شعره . بشرته سوداء وعظام وجهه افريقية . بين شفتيه يقبض على « البايب » أو الغليون . جلبابه ابيض وفى قدميه صندل مفتوح . زوجته الى جواره .. طويلة ضخمة سمراء . عيناها واسعتان تتكلم الانجليزية بلكنة امريكية . ولدت فى أمريكا وتعمل فى احد البنوك في داكار . سيمبينى عثمان يتكلم الفرنسية ولا يعرف الانجليزية . ابنهما شاب في العشرين ، جالس في البهو المقابل مستغرق فى مشاهدة التلفزيون الملون ، او فيلم من أفلام الفيديو .

دار الحديث حول الادب الافريقى ، والثقافة .

وقال سيمبينى عثمان : لم أتفق يوما مع فكرة سنجور عن « الزنجية » . ليس هناك ثقافة نابعة من الجلد الاسود وثقافة إخرى نابعة من الجلد الابيض . الثقافة تنبع من المخ ، وليس هناك مخ أسود ومخ أبيض . ولكن هناك شعوب فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية عانت الاستعمار بصرف النظر عن لون البشرة . ثم ان سنجور ليس هو مؤسس الزنجية . وانا لست مع سنجور ، وأى شيء يفعله سنجور فاشل ، وسياسته هنا كالسادات عندكم ، أما عبد الناصر فهو محبوب بين شعوب أفريقيا كلها . وقلت : هذا صحيح .

وقال : هل انت ناصرية ؟

قلت : لا .

قال : هل انت ماركسية ؟

قلت : لا .

وقلت : لا احب أن انسب نفسى لشخص مهما كان ، وانا مع العدالة والمساواة والحرية للمراة والرجل والوطن . عبد الناصر كان عظيما ، واخطاؤه ايضا كانت

عظيمة . وماركس كان مفكرا عظيما ، لكن افكاره ناقصة خاصة فيما يتعلق بوضع المرأة .

وقال سيمبيني عثمان : هذا طبيعى ، وليس هناك كلمة نهائية فى أى شىء ، وانا معك أن الاستقلال للاديب أمر هام ، لكنى اخترت أن اكون عضوا بالحزب الشيوعى السنغالى ، فالنضال السياسى من خلال الحزب هو الوسيلة الوحيدة لتغيير النظام ونحن فى حاجة الى تغيير الانظمة . ان كثيرا من الناس يتصورون أن السنغال بلد مستقل لان حاكمها رجل سنغالى اسود . لكن هؤلاء الحكام السود أشد خطرا من غيرهم لان الاستعمار يختبىء وراءهم .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤١٥ ـ ١٩٨٦

الترقيم الدولى × ـ ٢١٧ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧
ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش .

سوريا ٢٢٠٠ ق . س ، لبنان ٢٢٠٠ ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٧٠٠ فلس ، العراق ٢٢٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ٢٠٠٠ مليم ، الخليج ١٥٠ فلس ، الصومال ١٥٠ بنى ، لاجوس ١٥٠ بنى ، عدن ٢٠٠٠ سنت ، لندن ٢٥ سنتا ، اثينا ٢٥٠ دراخمة ، كندا ٦٠٠ سنت ، البرازيل ٧٠٠ سنت ، استراليا ٧٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سودانى ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، غزة والضفة ١١٠ سنت ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشماليه ٢٠ ريالا ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة .



هـذا الكتاب

في هذا الجزء الثاني من رحلاتها تواصل الدكتورة نوال السعداوى جولاتها في بلاد العالم . وقد حملتنا معها في الجزء الأول إلى أماكن مختلفة في أوروبا وآسيا ، وعشنا معها رحلتها الأولى إلى الجزائر بعد الثورة ، وإيران قبل الثورة ، وحياتها مع الفدائيين الفلسطينيين في الأغوار على حافة نهر الأردن . وسافرنا معها إلى النصف الآخر من الأرض في أمريكا ، وأول رحلة لها إلى روسيا ومؤتمرات النساء في شمال أوروبا ، ومتاحف باريس ولندن .

وتواصل الدكتورة نوال السعداوى بأسلوبها الخاص وقلمها المميز رحلتها الطويلة داخل الهند ، ذلك العالم الشاسع ، ثم تأخذنا معها إلى عوالم أخرى في قارة أفريقيا ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . نشهد منابع النيل وبحيرة فيكتوريا ، وندخل إلى الحبشة بعد الثورة ، ونتابع معها الرحلات حتى جزيرة العبيد على الساحل الغربي .

ندخل معها إلى المكان والانسان في آن واحد ، ونربط بين التاريخ والسياسة والأدب دون فاصل . نلتقي بالانسان العادى البسيط بمثل مانلتقي بأنديرا غاندى وكبار الحكام .

إنها رحلة ممتعة داخل النفس الانسانية بمثل ماهو رحلة إلى العالم البشرى الواسع .

الجزء الثانى

١٠٠ قرش